الدكتور عبد الجواد محمد محمد طبق
أستاذ البلاغة والنقد
بجامعة الأزهر

دراسات
لغوية صوتية بلاغية

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعـــد :

فتتناول هذه الدراسة فى اللغة العربية وأصواتها كثيرا مـــن القضايا المهمة التى تبرز جوانب عديدة من الأسرار المذخـورة فى هذه اللغة التى تفوقت على ما سواها من لغات البشـــر ، لما انفردت به من سمـات وخصائص تحفل هذه الدراســـــة بالكشف عن بعض جوانبها المتعلقـة باللغة والأصوات اللغوية .

وقد جمعت هذه الدراسة بين الاطار النظرى والاطـــار التطبيقى للقضايـا المهمة التى عرضت لها ، حيث يقوم الجانـب التطبيقى على مرتكز سليم من الناحية النظرية ، كما تؤتـــى الدراسة النظرية ثمارها فى الجانب التطبيقى القائم عليها .

ومن أهم القضايا التى عرضت لها هذه الدراسة ـ من خلال فصولها العديدة ـ قضية الأصوات اللغوية من حيث مواصفاتها وتصنيفاتها ومخارجها ومقاطعها وطولها وقصرها وأثر كل ذلـك فى بعض الأساليب العربية الفصيحة للوفاء بالغرض المقصـود ، وهو أمر يلتحم مع خصائص نظم الأساليب التى تأتى على وفــق المعانى الكامنة فى النفس ، وأعتقد أن بيان دور الأثر الصوتى فى الوفاء بالمطلوب على مستوى الحـرف أو الكلمة أو الأسلـوب لم ينل حظه الكافى من الدراسة التطبيقية حتى الآن .

وقد استطاعت هذه الدراسة أن تمزج ـ فى تكامـــــل

وانسيابيه — بين بعض قضايا فقه اللغة والأصوات وبعض القضايا البلاغية والنقدية والنحوية من خلال مسيرتها الهادفة ، وقد توخت في ذلك الايجاز الدقيق والمفيد فيما تعرضه بغية الوصول في يسر وسهولة — الى الهدف المنشود ، دون ايجاز مخل ، أو تطويل ممل ، وكان لبعض الأساليب القرآنية حظ موفور في هذه الدراسة .

نسأل الله تعالى أن ينفع بها ، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا ، حيث كشفت عن جوانب عديدة من أسرار هذه اللغة التي وسعت كتاب الله لفظا وغاية .

دكتور
عبد الجواد محمد
أستاذ بجامعة الأزهر

الزقازيق في : ٩ من رجب ١٤١٥ هـ .
١٢/١٢/١٩٩٤ م .

الفصل الأول

قضايا في :

* مكانة اللغة .
* نشأة اللغة .
* لغة الفكر ولغة الحديث ولغة الكتابة .

موقع اللغة من أنواع التعبير الانساني

تحتل اللغة من بين وسائل الاتصال المنزلة العليا ، لأنها من أهم هذه الوسائل ، كما أنها وحدها تميز الانسان عن غيره من مخلوقات الله ، ولذلك عرف المناطقة الانسان بأنه حيوان ناطق ، كما أن اللغة أهم طريق للكشف عن النفس وعن الغير وعن الكون كله ، فضلا عن أنها عامل مهم في الكشف عن تراث الماضي وآفاق المستقبل ومعايشة الحاضر ، وهي البوتقة التي تنصهر فيها الأفراد لتكون كلا متجانسا فكرا ووجدانا وسلوكا ، ولذلك كانت أهم أنواع التعبير الانساني ، ويتضح ذلك بصورة مفصلة من الحديث عن هذه الأنواع التي تدور حول قسمين :

القسم الأول : التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، ويشمل جميع الأمور الفطرية التي يعبر بها الانسان عما يحسه من سرور وألم كالضحك أو الصراخ وانفراج الأسارير أو انقباضها ، وغير ذلك مما تدل عليه حركة العين أو الوجه أو الشعر ... الخ .

وتنقسم هذه التعبيرات الفطرية الى نوعين :

١ ــ تعبيرات بصرية ، وهي التي تعتمد على حاسة البصر ، كالحمرة والصفرة والرعشة .

٢ ــ تعبيرات سمعية ، وهي التي تقوم على حاسة السمع كالضحك والبكاء والظواهر الصوتية الأخرى المصاحبة لحالات الفرح أو الألم ، ويقوم هذا النوع على أصوات مبهمة تشبه أصوات

الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة وأصوات لين مختلطة أحيانا ببعض الأصوات ذات المقاطع (حروف ساكنة) ومجال البحث في هذا النوع علم النفس .

القسم الثاني : التعبير الوضعي الارادي ، وهو التعبير الذي يقوم على القصد والارادة ، ويشمل جميع الوسائل الارادية التي يعبر بها الانسان عن نفسه ، وتتنوع هذه الوسائل من حيث الحاسة التي تعتمد عليها الى نوعين :

١ ــ تعبيرات ارادية بصرية ، وتشمل جميع الاشارات الحسية التي تدرك بالبصر ، وهي على ضربين :

أ ــ اشارات مساعدة وثانوية ، أي تساعد لغة الكلام وتنوب عنها في حالات خاصة كالاشارات البحرية واشارات المرور واشارات الصيادين واشارات الصم والبكم ، والاشارات التي تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعاني المراد الدلالة على أهميتها .

ب ــ اشارات أصيلة عامة ، وهي التي تستقل ببيان المراد في كل الأحوال كالاشارات المستخدمة عند بعض الجماعات الانسانية التي لا تزال مستعملة عند بعض الشعوب كاشارات بعض العشائر بأفريقيا الوسطى وبعض سكان أوربا وأمريكا وغيرهم من الشعوب البدائية ، ولها قواعد وضوابط اشارية معينة تعين على فهم المراد ، وان كانت لا تخلو من عيوب .

٢ ــ تعبيرات ارادية سمعية ، وهي التي تحصل عن طريق حاسة

السمع ، وهى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات ، وهذا النوع هو الذى تنصرف اليه كلمة اللغة ، اذا أطلقت ، وهو مجال بحثنا (١) .

اللغة الأولى وتوقيت ظهورها

لا يعرف على وجه التأكيد متى بدأت اللغة ، ولكن يمكن القول بأنها بدأت مع التجمع الانسانى الذى ظهرت فيه الأدوات المصنوعة كصنع بعض الأدوات من الحجر أو العظام أو أنياب الحيوان وقرونها ، وتدل المصادر اليهودية على أن ابتداء الخليقة كان سنة ٤٠٠٤ ق.م ، وقد حاول بعض القدماء معرفة اللغة الأولى التى بدئ بها الكلام ، ومن تلك المحاولات ما قام به (بسماتيك) أحد ملوك مصر لمعرفة أقدم لغات البشر ، فعزل طفلين فى كوخ مع خادم أمره ألا ينطق بكلمة أمامهما ، وحين بلغ الطفلان مبلغ الكلام طلبا من الخادم الطعام قائلين (باكوس) وهى كلمة تعنى (خبزا) فى اللغة الفريجية ، فدل ذلك على أن هذه اللغة أقدم اللغات ، ولكن جيمس الخامس ، ملك اسكتلندا أراد أن يستوثق من ذلك فكرر التجربة نفسها ، لكن النتيجة جاءت مخالفة ، لأن الكلمات التى نطق بها الأطفال كانت من العبرية .

بينما ذهب عالم سويدى الى أن آدم عليه السلام كان يتكلم السويدية ، وذهب آخرون الى أن الآرامية هى أقدم اللغات

---

(١) انظر : نشأة اللغة عند الانسان والطفل /٧ د . على عبد الواحد

وآخرون الى أن الصينية هى الأقدم ، ومن هنا تبدو غلبة النزعة القومية على الباحثين فى هذا الشأن .

وتذكر بعض المصادر العربية أن العربية أقدم اللغات وكانت هى لغة آدم عليه السلام .

والذى تطمئن اليه فى هذا المقام هو أن اللغة نشأت مع الانسان الأول ، وأنها كانت واحدة فى البداية ، ثم تنوعت بانتشار الانسان على الأرض ، لكن القائلين بالتطور يذهبون الى أن اللغة قد ظهرت يوم أن وصل المخ الانسانى الى درجة من النمو تسمح له باستعمالها ، وليس هناك ما يمنع من أن يكون هذا قد حدث فى أماكن متعددة فى الوقت نفسه .

نشأة اللغة :

لا شك أنه من الضرورى أن نقف وقفة موجزة عند نشأة هذه اللغة قبل التعرض لأهم خصائصها الصوتية والكتابية التى تساعدنا على نطق حروف ومفردات وتراكيب هذه اللغة نطقا صحيحا ، وكتابتها كتابة صحيحة ، ولا نعنى هنا بصحة النطق المسألة الاعرابية فى المقام الأول وان كانت مهمة ، لكننا نعنى صحة النطق المرتبطة بطبيعة الحرف المنطوق والكلمة المنطوقة ، داخل النسيج اللغوى ، ومواكبة الصوت اللغوى للغرض المقصود .

وقبل التعرض لنظريات نشأة اللغة نشير الى أن للغـــة نشأتين : نشأة أولى حينما أخذ الانسان الأول يصدر أصواتـــا معينة للتعبير عن حاجاته ، وسنتحدث عن هذه الظاهرة بعد قليل من خلال نظريات نشأة اللغة ، ونشأة أخرى تبدأ عندما يصدر الطفل بعض الأصوات تقليدا للمحيطين به .

والحديث عن نشأة اللغة حديث طريف يجذب انتبـــاه محبي الاستطلاع الذين يتشوقون الى معرفة شئ عن نشأة هـــذه اللغة التي يدور عليها محور الاتصال مع الآخرين في حياتهم .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المقام أن بعض الباحثين يرى أن لغة الأطفال يمكن أن تكون أساسا لفهم نشأة اللغــــة الأولى عند الانسان ، حيث يبدأ الطفل اصدار أصوات معينـــة في بعض الكلمات في المراحل الأولى مثل : قطة ، بطـــــة ، ماما ، بابا ... الخ ، كما أن لغة الطفل تقوم على المحاكـــاة والاشارات البدائية .

ولكن يؤخذ عليهم أن الطفل ينمو في بيئة اجتماعية يحاكي فيها بعض ما يسمع ، كما أن الكلمات التي يبدأ بها الطفــــل لا تعني أن البدائي كان يبدأ بها ، وان كان هذا الـــــرأى يفيد في أن بداية تعلم اللغة عند الانسان الأول كانت تقـــــوم على أسهل الكلمات ، كما أنها كانت تبدأ بالمحاكاة والاشـــارات كما سنبين في أثناء حديثنا عن نظريات نشأة اللغة .

نظريات نشأة اللغـــــة

لا شك أن نشأة هذه اللغة قد ارتبطت بالعوامل الــتى دعت الى ظهورها ، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الأخرى لا تنشأ الا فى وسط مجتمع انسانى يقوم على التعاون وتبادل الأفكار وضرورة التعبير عن النفس ، ولولا ذلك ما وجدت لغة ولا تعبير ارادى ، وسنعرض فيما يلى لأهم النظريـــــات حول نشأة اللغة .

النظرية الأولى :

نظرية الالهام الالهى أو نظرية التوقيف ، وتعنى هـــذه النظرية أن آدم عليه السلام علمه الله جميع الأسماء كما يدل عليه قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكـــة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانـــك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيـــب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وماكنتم تكتمون ((البقرة : ٣١ــ٣٣)) .

والقائلون بهذا الرأى يرون أن آدم عليه السلام علمه اللـــه جميع أسماء المخلوقات بجميع اللغات فكان آدم وولده يتكلمـــون بها ، ثم ان أولاده تفرقوا فى الدنيا وتعلق كل منهم بلغة مـــن هذه اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها ، وبذلك تكـــون اللغات مختلفة فى أصولها .

وأما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة فيعتمدون على ما ورد بهذا الصدد في سفر التكوين ، وهو «والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها ، وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الانسان ، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول» (الاصحاح الثانى من سفر التكوين : ١٩ — ٢٠) .

وهذان النصان اللذان استدل بهما أصحاب هذه النظرية من المسلمين وغيرهم ليسا قاطعين فى الدلالة ، اذ يحتمل أن يكون المعنى فى النص الأول خلق القدرة فى آدم — عليه السلام — على وضع الأسماء والألفاظ للمسميات .

أما النص الثانى فقد يكون دليلا على عكس ما ذهب اليه المستدلون كما هو واضح .

وممن أيد هذه النظرية من علماء المسلمين القدامى ابن فارس والطبرى ، والزمخشرى .

وخلاصة القول : أننا لا نستطيع رفض هذه النظرية مطلقا ، لأن النصوص الدينية لا تعارضها ، غاية الأمر أنها ليست قطعية الدلالة عليها ، وان كانت محتملة لها ، كما لا يخفى أن هذه النظرية تغفل اغفالا تاما ضرورة الظاهرة الاجتماعية التى تستدعى تعلم هذه اللغة وان كان يمكن الرد على

ذلك بأن كون النظرية توقيفية يجعلها لا تتوقف على الظاهرة الاجتماعية .

النظرية الثانية :

نظرية الوضع أو المواضعة أو الارتجال .

وتعنى هذه النظرية أن يصطلح مجموعة من الناس على وضع أسماء لمسميات معينة ، بينما يصطلح آخرون على وضع أسماء أخرى لها ، وبذلك كانت هذه النظرية تقوم على تخمين خيالى يحمل فى طياته عوامل هدمه ، لأنه ليس لها سند عقلى أو تاريخى ، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية كما قلنا ، والظواهر الاجتماعية لا ترتجل ولا تخلق خلقا ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها ، كما أن المواضعة تفتقر الى لغة يتفاهم بها المتواضعون ، فنشأة اللغة متوقفة على اللغة نفسها .

وقد اعتمد أصحاب هذه النظرية على بعض الأفكار الساذجة ومنها ما ذهبوا اليه من أن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة أو أكثر فيحتاجوا الى الابانة عن بعض الأشياء فيضعوا لكل منها لفظا أو علامة بدل احضارها ، كأن يقبلوا على شخص مثلا فيومئوا اليه قائلين : انسان ، انسان ، انسان ، فتصبح هذه الكلمة اسما له ، وان أرادوا تسمية عينه أو رأسه أو قدمه أشاروا الى العضو قائلين : عين ، رأس ، قدم ، ويسيرون على هذه الوتيرة فى بقية الأشياء ، وبذلك تنشأ اللغة

العربية مثلا ، ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضعوا كلمة مرد بدل انسان ، وكلمة سر بدل رأس ، وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية. (انظر : الخصائص لابن جنى بتصرف ١/ ٤٢ ، ٤٣) وقد فسر هذا الفريق تعليم الأسماء فى النظرية الأولى بالالهام الى وضعها .

النظرية الثالثة : نظرية الغريزة :

تذهب هذه النظرية الى أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع الى غريزة خاصة زود بها فى الأصل جميع أفراد النوع الانسانى ، وهذه الغريزة كانت تحمل كل فرد من النوع الانسانى على التعبير عن كل مدرك حسى أو معنوى بكلمة خاصة بها ، كما أن غريزة التعبير الطبيعى عن الانفعالات تحمل الانسان على القيام بحركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها ـ وقوف شعر الرأس ـ الضحك ـ البكاء ..) كلما شعر بحالة نفسية معينة كالحزن والسرور والغضب .. الخ ، وكانت متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ، وعلى ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الانسانية الأولى فاستطاعوا التفاهم فيما بينهم ، وبعد نشأة اللغة الانسانية الأولى انقرضت هذه الغريزة شيئا فشيئا حتى تلاشت كما انقرضت لهذا السبب كثير من الغرائز الانسانية القديمة .

وبهذا يكون الفضل فى نشأة اللغة يرجع الى غريزة زود بها الانسان فى الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع

كما زود باستمداد فطرى للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة .

ويرد على هذه النظرية عدة انتقادات ، منها أنها لا تحل المشكلة التى نحن بصددها ، بل تضع مكانها مشكلة أكثر غموضا وهى مشكلة الغريزة الكلامية ، ومنها أنها تفسر الشئ بنفسه ، ومنها أنه لا خلاف فى أن الانسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بالتلفظ ببعض الأصوات ، وهذا مشترك بين الانسان وبعض الطيور والذى يعنينا فى هذا المقام هو كيفية استغلال هذه القدرة والانتفاع بها فى الكلام الانسانى ، أى البحث عن الأسلوب الذى سار عليه النوع الانسانى فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التى وجهته الى هذا الأسلوب دون غيره ، ونظرية الغريزة لاتوضح ذلك.

وخلاصة القول : أن هذه النظرية تفترض أن اللغة نشأت من الصيحة الغريزية العاطفية التى تعبر عن ألم أو فرحة ، وعلى هذا تكون المنطوقات اللغوية الأولى من قبيل أشكال التعجب ، ومنها فى العربية أواه (أتوجع) أو أتضجر ، وبذلك تقدم لنا هذه النظرية بعض الأشكال التى استخدمها الانسان البدائى لكنها لا توضح لنا الطريقة التى ظهرت بها ، ولا تقدم تفسيرا كافيا للفاصل الكبير بين الصيحة الانفعالية والرمز اللغوى .

النظريــــة الرابعة : نظرية التقليد لأصوات الطبيعة :

ويعنى ذلك أن الانسان البدائى عرف اللغة من خـــلال تقليده للأصوات المحيطة بـه فى الطبيعة ، كصيحة الحيـــوان أو قصف الرعد ، أو دوى الريح ، أو حفيف الشجر .. الخ ، وربما يؤيد ذلك احتراف الانسان البدائى لمهنة الصيد التى كان يلجأ فيها الى تقليد أصوات الحيوانات لينبه رفاقه اليها ، ويؤيـــد ذلك بعض الدارسين بقولهم : ان الانسان الأول فى مـرحلـــة (ما) كان يستخدم أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة للاشـــارة الى هذه الأشياء ، ومن ذلك فى العربية البطبطة للبط والهدهدة للهدهد والقطقطة للقطة والقمقمة للقمقع ، وهو نوع من الطيور يظهر أيام الربيع ويختفى فى الشتاء ، ثم تطورت لغته فيما بعـــد ولم تقف عند هذه المعانى الأصلية ، بل تعدتها أحيانا الـــى معان أخرى لا تمت اليها بصلة ، كما فى الفحيح (صوت الأفعى) وقد أخذ من مادته قول العرب (فحفح) أى صحح المـــودة وأخلصها ولا علاقة بين المعنيين .

ومن ملامح تطور هذه النظرية أن الانسان الأول كان يقصـد بالأصوات التى يحاكيها من الطبيعة الدلالة على مصدرهـــا ، وكانت لغته فى البداية محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع ، قريبـــة الشبه بالأصوات الطبيعية التى تحاكيها ، ولذلك كانت قاصرة الدلالة على ما يراد بها ، فاحتاجت الى مساعد وذلك هــــو الاشارات اليدوية والحركات الجسمية ، ثم توسع الانسان فـــى

فى استخدام هذا الساعد تحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها ... فازدادت أهميته فى الحديث وسد فراغا كبيرا فى اللغة الصوتيه ، ثم ارتقت بعد ذلك لغة الانسان تبعا لارتقاء التفكير واتساع حاجات الانسان فاستغنى شيئا فشيئا عن هذه الاشارات ، وبدأت اللغة تبعد عن أصولها الأولى كما سبق فى الفحيح تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات الطبيعية التى تعتور الصوت وأعضاء النطق الانسانى وعلاقات المجاورة والمشابهة التى تعتور الدلالات .

ومما يعضد هذه النظرية اتفاقها مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعيه ، كما أن تطورها يتفق فى كثير من وجوهه مع الارتقاء اللغوى عند الطفل ، لأن الطفل يبدأ أصواته الأولى بالمحاكاة كما أنه يعتمد فى بداية تفكيره على الحركات اليدويه والجسمية ولا يخفى أن هناك وجه شبه كبير بين النشأة الأولى للغة ونشأة لغة الطفل ، كما أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الانسانيه فى مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه من خصائص اللغات فى الأمم البدائية حيث تكثر المفردات التى تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه ، ولنقص هذه اللغات فى الدلالة وسذاجتها وابهامها تصاحبها الاستعانة بالاشارات اليدويه والجسمية .

وهذه النظرية هى أقرب النظريات الواردة فى نشأة اللغة الى الصواب لما ذكرناه من وجوه تعضدها وان كانت هى الأخرى لم تسلم من النقد تماما .

النظرية الخامسة : نظرية الاشارات :

تعنى هذه النظرية أن لغة الاشارة سبقت لغة الكلام ولذلك استخدم بعض الحيوانات اشارات مختلفة استخداما واسعــا ، وكذلك الانسان البدائى كما هو الحال عند قبائل الهنـــود الحمر فى أمريكا الشمالية ، كما استخدم النوع المتطور مــن الاشارات فى مفاوضات جرت بين قبائل مختلفة اللغات .

وربما يعضد هذه النظرية تداخل الكلام والاشارة تداخــلا كبيرا ، كما أن مراكز المخ التى تتحكم فى حركات اليد متصلــة اتصالا وثيقا بالمراكز التى تتحكم فى أعضاء النطق ، ومن المحتمل جدا أن الكلام والاشارة قد نموا معا . ولكن لغة الاشارة علــى الرغم من تطورها الكبير يحول دون وفائها بالغرض حوائـــل كثيرة كالظلام والحواجز كالجبال والأشجار وطلاقة اليد فــى الاشارة ... وغير ذلك .

ونستطيع أن نقرر فى النهاية أن هذه النظريات جميعهــا ما هى الا محاولات لكشف نشأة اللغة ، وان كان لم يسلـــم أى منها من المناقشة ، ولذلك لا نستطيع الجزم بقبول احداهـا تماما ، والرفض المطلق لسواها ، ولكننا نستطيع الجزم بأن بعضها أقرب الى القبول من غيره .

((انظر فى هذا الموضوع : نشأة اللغة دكتور/عبد الواحـد وافى ، ومدخل الى اللغة د / محمد حسن عبد العزيز)) .

العلاقة بين الفكر واللغـــة

بعد أن تناولنا أهم النظريات فى نشأة اللغة نطـــرح الآن سؤالا وثيق الصلة باللغة أيضا ، ونحاول فى السطـــور التالية الاجابة عنه ، أما السؤال فهو : هل يستطيع الانســان التفكير بدون لغة؟ والسؤال كما هو واضح يتناول جانبا آخـــر من أهمية اللغة قد لا يتعرض له الكثير من الباحثين فى علـــم اللغة والأصوات ، وأما الاجابة عن هذا السؤال فهو ما نتعـــرض له فيما يلى :

انقسم الباحثون حول هذه القضية الى فريقين ، ذهب الفريق الأول ، وعلى رأسه (أفلاطون) الى أنه لا تفكير بدون لغـــة ، لأن الفكر قائم على اللغة ، والفكر حوار صامت بين الانســـان ونفسه ، ولا يستطيع الانسان أن يحاور نفسه ، ما لم تكن لـــه لغة تقوم على هذا الحوار ، فالطالب الذى يفكر فى الالتحـاق باحدى الكليات الجامعية بعد حصوله على الثانوية العامة — مثلا — يدير حوار بينه وبين نفسه ، يقوم على أساس من اللغة كـــأن يقول لنفسه : ان مجموعى يؤهلنى للالتحاق بكلية الطب أو بكلية الهندسة ، لكن أى الكليتين ذات مستقبل مرموق؟ وما هى رغبتى الأكيدة فى دراسة مواد احدى الكليتين ؟ وهل تتساوى سنوات الدراسة بين الكليتين ؟ أو يتساويان فى المكان وفى المكانـة ؟ الى غير ذلك من الأسئلة التى يطرحها فى حوار صامت على نفسه

ثم يستقر بعد ذلك على رأى معين ، فما أشبه اللغة التى يقوم عليها الفكر بالمعلومات التى تزود بها الحاسب الآلى ، والتى تكون أساسا فى قيامه بوظائفه ، وما أشبهها أيضا بالأنغام التى يحتاج اليها الموسيقار فى تأليف لحن منسجم ، أو الألوان التى يحتاج اليها الرسام فى تكوين صورة متناسقة فالعلاقة بين الفكر واللغة علاقة متبادلة ، اللغة تشكل الفكر ، والفكر يصوغ اللغة .

ومما يعضد هذا الرأى أن الطفل يكتسب اللغة أولا قبل أن يستطيع التفكير ، كما أن الحيوان لا يفكر لأنه لا لغة له ، وكلما اتسعت لغة الطفل نما تفكيره ، وهكذا الحال فى الكبار .

أما الفريق الآخر وعلى رأسه (فندلر) ، فيرى أن الفكر لا يتوقف على اللغة ، ويؤيد وجهة نظره بأن الأصم الأبكم والذى قد يكون أعمى أيضا يتصل مع أفراد مجتمعه عن طريق الاشارات باليدين والوجه واللمس ، كما أنه يشعر بما حوله ويتدبر ويحاور ، ويمكن أن يتخذ قرارات معينة مع أنه لم يسمع لفظة واحدة منذ ولادته ، فضلا عن النطق بها ، ولكن القائلين بقيام الفكر على اللغة يجيبون عن هذا الموقف اجابة غامضة حيث يرون أن هذا التفكير يقوم على صورة حوار لغوى داخلى عن طريق تصور ذهنى لاشارات الوجه واليدين ، وهذا كلام مبهم خيالى افتراضى ، لأن الفكر حينئذ يقوم على اشارات داخلية مبهمة يراها الأصم الأبكم بعين عقله ، والمهم :

أن (فندلر) يرى أنه من الأوفق القول بأن الأصم الأبكم يفكر ، والتفكير عنده يتم داخل عقله بطريقة غامضة ، لم تكتشف بعد ، وهذا يدعونا الى عدم الربط الحتمى بين الفكر واللغة .

لكن يمكن الرد على (فندلر) بأن هذه حالة شاذة ، لا نستطيع أن نقيم عليها قاعدة عامة بدليل أن (فندلر) نفسه يتفق مع الفريق الآخر فى أن الانسان السوى لا يفكر بدون لغة .

أما عن أهم خصائص لغة الفكر فهى مبهمة غامضة موجزة غير مرتبة ، حيث تتجمع الألفاظ التى تقوم عليها الفكرة على ذهن المفكر مرة واحدة ، ولذلك نجد بونا شاسعا بين لغة الفكر ، ولغة الكتابة ، وهذا يفسر لنا ضرورة عمل المسودات عندما نحول لغة الفكر الى كلمات مكتوبة ، ولك أن تتصور ماذا يكون عليه الحال لو كتب الانسان أفكاره كما وردت فى خاطره ، فما أشبه لغة الفكر بالصورة الفوتوغرافية التى تأتى فى دفعة واحدة ، وما أشبه لغة الكتابة بالصورة التى تنشأ عن طريق الرسام الذى يتأنق فى اخراجها .

لغة الحديث ولغة الكتابة :

واذا كنا قد أشرنا فى عجالة الى أهم خصائص لغة الفكر مقارنة بلغة الكتابة فان هناك فروقا دقيقة وموازنات بين لغة الحديث ، ولغة الكتابة ، وسنرى من خلال ذلك أن هناك علاقة وثيقة بين لغة الحديث وبعض الخصائص الصوتية المعينة على فهم المراد .

وفى مجال المقارنة بين اللغتين نذكر أهم ما تتفوق به لغة الحديث على لغة الكتابة ، وكذلك ما تتفوق به الأخيرة على الأولى ، أما تفوق لغة الحديث فيرجع الى أنها أسهل من لغة الكتابة ، ولذلك يتعلمها الطفل أولا ، كما أنها أسرع ، وتتسم بالحرارة والدفء والعاطفة والايجاز وعدم الالتزام أحيانا بالقواعد والترتيب فى الكلام ، لأن هناك عوامل مساعدة كثيرة يستعاض بها عن ذلك ، كاشارات العينين أو هزة الكتفين ، أو حركة الرأس ، وما يصاحب هذه اللغة أيضا من انبساط أسارير الوجه أو انقباضها ، أو الضغط على بعض الحروف أو مدها ليكون الصوت مشاكلا للمعنى فى الوفاء بالمراد ،

كما اذا أطلت المد فى قولك : ان تحقيق الهدف بعيد ، أو ضغطت على العين فى قولك : الامتحان صعب ، كما أن العوامل المساعدة فى لغة الحديث قد تجعل الجملة دالة على غير معناها كما تقول للمهمل تهكما : الاهمال طريق النجاح ، وقد تجعل الكلمة الواحدة دالة على عدة معان كما تقول لمن عرض عليك شيئا بقولك : (طيب) مع اشارة من العينين بالموافقة التامة ، أو مع حركة من الكتفين تدل على التردد ، أو مع حركة من اليدين تدل على التهديد ،

يضاف الى ذلك كله أن لغة الحديث يخاطب بها كل الناس بخلاف لغة الكتابة ، حيث توجه الى من يعرف القراءة والكتابة فقط ، كما لا يخفى أن الانسان يتكلم أكثر مما يكتب ،

ومما تفوقت به لغة الكتابة على لغة الحديث أنها أكثر أمانة على الناس ، كما أنها ثابتة ، ولذلك أسهمت في نقل الكثير من الشعر العربي بعد أن ضاع أكثره عندما كان ينتقل منافها قبل الكتابة ، كما أنها أوسع انتشارا من لغة الحديث .

ولا يفوتنا هنا في مجال المقارنة بين اللغتين أن نشير الى أن لغة الحديث أوضح من لغة الكتابة لأنها رمز لما تدل عليه بخلاف لغة الكتابة ، لأنها رمز للمنطوق ، والمنطوق رمز لما يدل عليه ، فهي رمز للرمز ، ولغة الحديث رمز فقط ، ولذلك كانت أيسر وأوضح .

ولما كانت لغة الكتابة هي الوسيلة الوحيدة للاتصال بين الكاتب وجمهوره كان لابد من الالتزام فيها بكل قواعد الكتابة املاء وأسلوبا ، اذ ليس هناك ما يعوض النقص في ذلك من العوامل المساعدة التي أشرنا اليها في لغة الحديث ، وعلى الكاتب أن يتذكر دائما أنه يكتب لغيره ، ولا يكتب لنفسه ، ولذلك ينبغي أن يراعي الدقة التامة في نقل أفكاره وأحاسيسه وعواطفه ، تجاه ما يكتب حتى يجعل القارئ يحس احساسه نفسه ويقتنع بما اقتنع به الكاتب ، وقد رأينا فيما سبق البون الشاسع بين لغة الفكر ، ولغة الكتابة ، وهو الذي يفسر لنا اللجوء الى المسودات عند نقل لغة الفكر الى لغة الكتابة ، كما رأينا ما تفوقت به لغة الحديث على اللغتين من بعض

الخصائص الصوتية والعوامل المساعدة الأخرى والموقف المشترك الذى يعين على التجاوب بين المتحدث ومن يستمع اليه ، وبذلك يتحمل الكاتب تبعة انصراف القارئ عن متابعة ما هو مكتوب غالبا .

((انظر فى هذا الموضوع : التحرير العربى ، دكتور أحمد شوقى رضوان ، ودكتور / عثمان صالح الفريح)) .

* * *

الفصل الثانـــــــي

اطار عام نظري للأصوات اللغويــة

الصوت اللغوى وأعضاء النطق
(حدود ومعالم)

دراسة الأصوات اللغوية هنا وما يتعلق بها من أعضاء النطق ومخارج الحروف وكيفية حدوث الصوت اللغوى ليست مقصودة لذاتها ، وانما لما يترتب عليها من معرفة النطق الصحيح لحروف الكلمة ، حيث يأخذ كل حرف حقه فى الصوت المناسب له ، وبخاصة فى النصوص القرآنية التى ينبغى أن يراعى فى نطقها الصحة المطلوبة ، وقد يكون لذلك آثاره الايجابية التى تنعكس على المعنى كما سيأتى فى التطبيق على بعض النصوص .

ونورد هنا بعض المعلومات الضرورية التى ينبغى الوقوف عليها لدارسى الأصوات قبل التعرض لأعضاء النطق وخصائص الحروف والتطبيقات المرتبطة بها ، وغير ذلك مما سنعرض له فى المباحث التالية .

ومما ينبغى التنبيه له فى هذا المقام أن كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز ، وان كانت تلك الهزات لا تدرك بالعين ، كما أن هزات مصدر الصوت تنتقل فى وسط غازى ، أو سائل حتى تصل الى الأذن الانسانية ، والهواء هو الوسط الذى تنتقل خلاله الهزات فى معظم الحالات ، وتنتقل الهزات من مصدر الصوت فى شكل موجات حتى تصل الى الأذن .

وتتوقف شدة الصوت أو ارتفاعه على بعد الأذن عن مصدر الصوت ، فعلى قدر قرب الأذن من ذلك المصدر يكون وضوح الصوت وشدته ، كما تتوقف شدة الصوت على سعة الاهتزازة ، وهى المسافة المحصورة بين الوضع الأصلى للجسم المهتز ، وهو فى حالة السكون ، وأقصى نقطة يصل اليها الجسم فى هذه الاهتزازة ، فعلى قدر اتساع هذه المسافة يكون علو الصوت ووضوحه •

هذا ، ويساعد على شدة الصوت أو علوه اتصال مصدره بأجسام رنانة ، ولهذا شدت الأوتار الموسيقية على ألواح أو صناديق رنانة ليقوى الصوت ويتضح •

ودرجة الصوت تتوقف على عدد الاهتزازات فى الثانية ، فاذا زادت الاهتزازات أو الذبذبات على عدد خاص ازداد الصوت حدة ، وبذا تختلف درجته ، وعدد الاهتزازات فى الثانية يسمى فى المصطلح الصوتى " التردد " •

أما عن نوع الصوت ، فهو تلك الصفة الخاصة التى تميز صوتا عن صوت ، وان اتحدا فى الدرجة والشدة ، وهكذا نستطيع تمييز صوت الكمنجة من صوت العود رغم اتحادهما فى الدرجة والشدة ، وتلك هى الصفة التى تميز صوتا انسانيا عن صوت آخر ، ولذلك يميز كثير من الناس بين أصوات أصدقائهم فى الهاتف (التليفون) ، وعلى هذا فالصوت الانسانى صوت ينشأ من ذبذبات فى الحنجرة ، فعند اندفاع النفس

من الرئتين يمر بالحنجرة ، فيحدث تلك الاهتزازات التى يحدث صدورها من الفم أو الأنف تنتقل خلال الهواء الخارجى على شكل موجات حتى تصل الى الأذن ٠

ومصدر الصوت الانسانى فى الغالب هو الحنجرة أو بعبارة أدق هو الوتران الصوتيان فيها ، فاهتزازات هذين الوترين هى التى تنطلق من الفم أو الأنف ، ثم تنتقل خلال الهواء الخارجى ٠

وتتوقف درجة صوت المرء على سنه وجنسه ، فالأطفال والنساء أحد أصواتا من الرجال ، وذلك لأن الوترين الصوتيين فى الأطفال والنساء أقصر وأقل ضخامة ، ويؤدى هذا الى زيادة فى سرعتهما وعدد ذبذباتهما فى الثانية ، والطفل حين يصل الى البلوغ يتضخم وتراه الصوتيان فجأة كما يطولان ، ويترتب على هذا عمق فى صوته يجعله أقرب الى الرجال منه الى النساء ، لأن عدد ذبذبات الوترين الصوتيين الضخمين أقل كثيرا ، وضخام الأجسام من الناس هم عادة عميقو الأصوات هذا ، وصوت الرجل عرضة للتغيير فى درجته بين الخمسين والستين من عمره ٠ وطول الوتر الصوتى فى البالغ حوالى : (٢٣) مليمترا ، ويمتد أحيانا الى ٢٧ مليمترا ، وعدد الذبذبات فى الحنجرة يتراوح فى الغناء بين ٦٠ ذبذبة فى الثانية ومئات الذبذبات ، ولكنه فى الكلام السين الواضح لا يكاد يجاوز مائتين أو ما يقرب من هذا ٠

هذا ما يتعلق ببعض الأمور المرتبطة بالصوت ، أما أعضاء النطق فنوجز القول عنها فيما يلي :ـ

١ ـ القصبة الهوائية :

يتخذ النفس فيها مجراه قبل اندفاعه الى الحنجرة ، وقد أثبتت البحوث الحديثة أنها تستغل في بعض الأحيان كفراغ رنان ذي أثر بين في درجة الصوت ، ولا سيما اذا كان الصوت عميقـــا .

٢ ـ الحنجـــرة :

وتشتمل على الوترين الصوتيين اللذين يهتزان مع معظم الأصوات هزات منتظمة أمكن عدها في الثانية ، وترتب على ذلك معرفة درجة الصوت .

والوتران الصوتيان هما رباطان مرنان يشبهان الشفتين يمتدان أفقيا من الخلف الى الأمام حيث يلتقيان عند البروز الذي نسميه " تفاحة آدم " ، ويسمى الفراغ الذي بينهمـــا بالمزمار ، وفتحة المزمار تنقبض بنسب مختلفة مع الأصـــوات ، ويترتب على هذا اختلاف نسبة شد الوترين واستعدادهمـــا للاهتزاز ، فكلما زاد توترهما زادت نسبة اهتزازهما في الثانية ، فتختلف تبعا لهذا درجة الصوت ، وللمزمار غطاء يسمى عادة لسان المزمار ، وظيفته الأصلية أن يكون بمثابة صمام يحمي طريق التنفس في أثناء عملية البلع .

٣ ـ الحلق :

هو الجزء الذى بين الحنجرة والفم ، وهو فضلا عن أنـــه مخرج لأصوات لغوية خاصة يستغل بصفة عامة كفراغ رنان يضخم بعض الأصوات بعد صدورها من الحنجرة .

٤ ـ اللسان :

اللسان عضو هام فى عملية النطق ، لأنه مرن وكثير الحركـة فى الفم عند النطق ، فهو ينتقل من موضع الى آخر فيكيف الصوت اللغوى حسب أوضاعه المختلفة ، وقد قسمه علماء الأصوات الـى ثلاثة أقسام : أول اللسان بما فى ذلك طرفه ، والثانى وسطه ، والثالث أقصاه .

٥ ـ الحنـك الأعلى :

هو العضو الذى يتصل به اللسان فى أوضاعه المختلفـة ومع كل وضع من أوضاع اللسان بالنسبة لجزء من أجزاء الحنـك الأعلى تتكون مخارج كثير من الأصوات ، وينقسم الحنك الأعلـى الى أقسام عدة هى : الأسنان ، ثم أصولها ، ثم وسط الحنك ، أو الجزء الصلب منه ، ثم أقصى الحنك أو الجزء اللين منـه ، ثم اللهاة ، وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقـف الفم ، وهى نهاية الحنك اللين .

٦ ــ الفراغ الأنفي :

هو العضو الذي يندفع خلاله النفس مع بعض الأصـــوات كالميم والنون ، فضلا عن أنه يستغل كفراغ رنان يضخم بعـض الأصوات حين النطق .

٧ ــ الشفتـــان :

للشفتين وظيفة ملحوظة مع بعض الأصوات ، فهما تنفرجـان حينا ، وتستديران أو تنطبقان حينا آخر ، وهكذا نلحـــظ تغييرا في شكل الشفتين أثناء النطق ، وتختلف عـــادات المتكلمين في استغلال حركة الشفتين والانتفاع بها .

هذا ، ولا يخفى ما للرئتين من أثر كبير في عملية التنفـس والكلام ، اذ بغيرهما لا يكون كلام ولا يكون تنفس أو حيـــاة (١) .

* * *

(١) انظر : الأصوات اللغوية د / ابراهيم أنيس ــ مكتبة الأنجلـــو المصريـــة .

تصنيف الأصوات اللغويـــــة

تنقسم أصوات الكلام الى قسمين رئيسين هما : الأصوات الساكنة أو الصامتة ، والأصوات المتحركة أو اللينة . أمـــــا الأصوات الساكنة فالمقصود بها الحروف مجردة عن حركاتهـا ، وأما الأصوات المتحركة أو اللينة فهي الحركات القصيرة كالفتحة أو الضمة أو الكسرة ، أو الطويلة ، كالألف الواقعة مدا بعـــد الفتحة أو الواو الواقعة مدا بعد الضمة أو الياء الواقعـــــة مدا بعد الكســـرة .

ويقوم هذا التقسيم على وضع الوترين الصوتيين وطريقـــــة مرور الهواء من الحلق والفم والأنف ، وفيما يلي ايجاز الحديث عن هذين القسمين :

أولا : الأصوات الساكنة أو الصامتة :

التقسيم الأول (مجهورة أو مهموسة) :

تنقسم هذه الأصوات بحسب وضع الوترين الصوتيين الـــى أقسام ثلاثة هي :—

أولا : الأصوات المجهورة : وهي الأصوات التي ينضم عند النطق بها الوتران الصوتيان نتيجة انقباض فتحة لسان المزمار انقباضا يسمح للهواء بالمرور خلال الوترين الصوتيين ، ونسبة الأصوات المجهورة الى الأصوات الأخرى في الكلام تصل الـــى

أربعة أخماس تقريبا ، بينما تصل نسبة الأصوات الأخرى الى الخمس تقريبا .

ثانيا : الأصوات المهموسة : وهى التى ينفرج معها الوتران الصوتيان بحيث يمر الهواء بينهما دون عائق ، نتيجة انبساط فتحة المزمار ، وقد جمعها بعض القدامى فى (سكت فحثه شخص) مضافا اليها القاف والطاء ، والأصوات المجهورة ما عداها مضافا اليها أصوات اللين ، وباستثناء صوت الهمزة .

ثالثا : اذا انطبق الوتران انطباقا لا يسمح بمرور الهواء ، ثم انفرجا دفعة واحدة نتيجة اندفاع الهواء المنحبس سمى الصوت الناتج عن ذلك انفجاريا ، وهو الهمزة ، وانما ذكرنا هذا الصوت الانفجارى هنا مع أن موضعه سيأتى بعد قليل لارتباط نطق هذا الصوت بوضع الوترين الصوتيين .

التقسيم الثانى : (شديدة — رخوة — متوسطة) :

يقوم هذا التقسيم على ضيق مجرى النفس عند النطق ببعض الأصوات أو اتساعه أو انحباسه انحباسا تاما ، والأصوات بهذا الاعتبار تتنوع الى ما يأتى :

أولا : أصوات شديدة (انفجارية) وهى التى ينحبس معها مجرى النفس انحباسا مطلقا لالتقاء بعض أعضاء النطق ببعضها التقاء محكما عند نقطة معينة ، كالباء مثلا ، حيث ينطبق الشفتان عند النطق بها ، والدال أو التاء حيث يلتقى فيهما طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ، أما الكاف والجيم القاهرية

فنقطة الالتقاء فيهما أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى ،
وقد جمع بعض القدماء الأصوات الشديدة فى (أجدك قطبت)
وقد سبق أن أشرنا الى أن نقطة الالتقاء عند النطق بالهمزة تكون فى الوترين الصوتيين ، ولذلك عدت صوتا انفجاريا أيضا .

ثانيا : أصوات رخوة (احتكاكية) وهى التى لا ينحبس معها الهواء انحباسا محكما ولكن مجراه عند المخرج يكون ضيقا جدا ولذلك يحدث النفس أثناء مروره نوعا من الصفير كما فى نطق السين أو الزاء أو نوعا من الحفيف كما فى نطق الفاء وتدخل الجيم الفصيحة (المعطشة) فى هذا النوع ، لأن صوتها الانفجارى الناتج من ارتفاع مقدم اللسان نحو مؤخر اللثة ومقدم الحنك فيحتجز الهواء الخارج من الرئتين يطلق عليه رخو أو احتكاكى و لأن انفصال الأعضاء يتم ببطء فيعطى فرصة لاحتكاك الهواء بالأعضاء المتباعدة ، فيحدث نوعا من الحفيف يقلل من شدتها فلا يكون صوتا انفجاريا مطلقا ، والأصوات الاحتكاكية أو الرخوة فى العربية ما عدا الأصوات الشديدة السابقة أو المتوسطة الآتية .

ثالثا : أصوات متوسطة بين الشديدة والرخوة (مائعة) أو صوامت رنانة ، وهى التى تتكون فى غرف الرنين ، لكنها مصحوبة بنوع ما من العائق فى مجرى النفس ، ولما كان مرور الهواء فى أثناء النطق بها متردّدا بين المنع والسماح له بالمرور سميت متوسطة أو مائعة ، فالميم مثلا يكون مجرى الفم معها مسدودا بانطباق الشفتين ، فيمر الهواء من الأنف

والنون يكون مجرى الفم معها مسدودا بالتقاء طرف اللسان بأصول الأسنان العليا واللثة فيمر الهواء من الأنف ، وقد جمع حروفها ابن سنان فى (لم يروعنا) واعتبر الحروف الباقية بعد الأصوات الشديدة (أجدك قطبت) ، والأصوات المتوسطة (لم يروعنا) أصواتا رخوة ، وعلى رأيه تكون الأصوات الرخوة هى : ح ، خ ، ف ، ث ، س ، ز ، ذ ، ش ، هـ ، ح ، غ ، ض) .

<u>التقسيم الثالث</u> : (مخارج الأصوات) :

يقوم هذا التقسيم على مخرج الصوت أو موضع النطق ، وتتنوع الأصوات بهذا الاعتبار الى ما يلى :ـ

١ ـ الأصوات الشفوية : الباء والميم .

٢ ـ الأصوات الشفوية الأسنانية : الفاء .

٣ ـ طرف اللسان مع أصول الثنايا : الدال والضاد والتاء والطاء .

٤ ـ طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا : الذال والثاء والظاء

٥ ـ طرف اللسان مع اللثة العليا : اللام والراء والنون ، ولوضوحها فى السمع جعلوها شبيهة بأصوات اللين [1] .

٦ ـ طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى : الزاء والسين والصاد ، ويطلق عليها أصوات الصفير .

---

(١) ما عدا الراء ، فقد استبدلوا بها الميم ، وبذلك تكون الأصوات الشبيهة بأصوات اللين هى (ل ـ م ـ ن .

٧ ـ وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى : الشين والجيم الفصيحة ، والياء غير الممدودة .

٨ ـ أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى : الكاف والقاف والجيم القاهرية .

٩ ـ الأصوات الحلقية : الهمزة والهاء (أقصى الحلق) والعين والحاء (وسطه الحلق) والغين والخاء (طرف الحلق من جهة الفم) .

١٠ ـ أما الواو فيمكن أن تعد من أصوات الشفتين لانضمامهما عند النطق بها ، أو من أصوات أقصى اللسان مع أقصى الحلق كما ذهب اليه البعض كما سيأتى(١) .

* * *

(١) انظر : التجويد والأصوات د / ابراهيم نجا ـ مطبعة السعادة بالقاهرة .

صفات الأصوات الساكنـــة

ذكرنا فيما سبق بعض صفات هذه الأصوات في أثنـــاء الحديث عن التقسيمات السابقة ، كالجهر والهمس ، والشــدة أو الرخاوة أو التوسط ، وبقيت بعد ذلك صفات أخرى للأصوات الساكنة نوردها فيما يلي :ـ

الاطباق ويقابله الانفتاح :

الاطباق: ارتفاع اللسان الى أعلى الحنك حتى يصـــير كالطبق له ، وحروفه : الصاد والضاد والطاء والظاء ، وأهـــم فوائد الاطباق عدم تحول هذه الحروف عند النطق بها الى حروف أخرى مشابهة لها ، كتحول الصاد الى السين والضاد الى الدال ، والطاء الى التاء ، والظاء الى الذال ، وهـــذه الأصوات نفسها يمكن أن تعد من أصوات الاستعلاء الآتيـــة ، وذلك بحسب نسبة ارتفاع اللسان الى أعلى الحنك .

أما الانفتاح : فلا يرتفع اللسان عند النطق بحروفه الـــى أعلى الحنك ، وحروفه ما عدا السابقة .

الاستعلاء ويقابله الاستفال: الاستعلاء : ارتفاع اللســان الى أعلى الحنك عند النطق بالحرف ، وحروفه مجموعـــة فـــي (خص ضغط قظ) .

والاستفال : عدم ارتفاع اللسان الى أعلى الحنك عند النطق بالحرف ، وحروفه ما عدا السابقة .

الذلاقة ويقابلها الاصمات : الذلاقة : طلاقة اللسان وخفته ، وحروفها مجموعة فى قولهم : (مر بنفل) ولها فائدة جليلة فى التعرف على بعض الأسماء من حيث الحكم بعربيتها أوعدمها ذلك أن كل اسم رباعى أو خماسى لابد أن يشتمل على واحد من حروف الذلاقة أو أكثر ، مثل : جعفر ، وقهبلس (الضخمة من النساء) حتى يحكم بعربيته ، والا كان خارجا عن العربية ما لم ينص على عربيته كالعسجد (الذهب) والزهزقة (شدة الضحك) .

أما الاصمات : فيطلق على الحروف التى لا يكتفى بها فى تركيب الكلمات كأنها صمتت ، أى : ترك تركيب الكلمات منها ، وحروفه ما عدا السابقة .

التفخيم ويقابله الترقيق :

التفخيم : تعظيم الحرف عند النطق به حتى يمتلئ الفم بصداه ، وحروفه هى حروف الاستعلاء السابقة . ويضاف اليها الراء واللام والألف فى مواضع معينة (١) .

---

(١) انظر : الأصوات اللغوية /٦٤ د / ابراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، وانظر أيضا : التجويد والأصوات /٧٤ ، د / ابراهيم نجا . مطبعة السعادة .

الترقيق: جعل جسم الحرف نحيلا ، فلا يمتلئ الفم بصداه ، وحروفه ما عدا السابقة .

هذا ، وهناك بعض الصفات الأخرى للحروف ، لا مقابل لها ، نوردها فيما يلي :ـ

الصفير: صوت زائد يخرج من بين الشفتين شبيها بصفير الطائر ، وحروفه : السين والزاء والصاد .

القلقلة : اضطراب الحرف عند النطق به ساكنا ، وحروفه (قطبجد) .

التفشي : انتشار الصوت في الفم ، وهو خاص بالشين .

التكرار: تكرار الحرف على طرف اللسان وهو خاص بالراء (١).

ثانيا : الأصوات المتحركة أو أصوات اللين :

علمنا مما سبق أن الأصوات الساكنة هي التي ينحبس معها الهواء انحباسا محكما لحظة ، ثم ينطلق ، أو يضيق مجراه فيحدث نوعا من الصفير أو الحفيف ، ومن هذا المنطلق كان هناك ما يسمى بالأصوات الشديدة (الانفجارية) أو الرخوة (الاحتكاكية) أو المتوسطة (المائعة) .

---

(١) السابق د / ابراهيم نجا .

أما اذا ارتبط النطق بالصوت باهتزاز الوترين أو عدمه فقد نتج عن ذلك تقسيم الأصوات الى مجهورة ومهموسة — كما سبق .

وفي مقابل ضيق مجرى الهواء في الوترين أو اتساعه وانحباس الهواء عند منطقة معينة في أعضاء النطق انحباسا محكما ، أو غير محكم نجد أن هناك أصواتا أخرى يخلو مجرى الهواء عند النطق بها من أى موانع أو عوائق(١) .

هذا ، وقد ترتب على كيفية مرور الهواء في حالتى النطق بالأصوات الساكنة أو اللينة أن المحدثين لاحظوا أن الأصوات الساكنة على العموم أقل وضوحا في السمع من أصوات اللين ، فأصوات اللين تسمع من مسافة تختفى عندها الأصوات الساكنة ، أو يقع خطأ في تمييزها ، فالفتحة مثلا ، وهى صوت لين قصير تسمع بوضوح من مسافة أبعد كثيرا مما تسمع عندها الفاء ولهذا عد الأساس الذى بنيت عليه التفرقة بين الأصوات الساكنة والأصوات اللينة أساسا صوتيا ، وهو نسبة وضوح الصوت في السمع ، ففي الحديث بين شخصين بعدت بينهما المسافة قد يخطئ أحدهما سماع صوت ساكن ، ولكنه يندر أن يخطئ سماع صوت لين ، وكذلك الحال في الحديث بالتليفون وأصوات اللين الطويلة أوضح من القصيرة لطول الأولى في النطق دون الثانية ، وليست كل أصوات اللين القصيرة على

(١) الأصوات اللغوية ٦/٢ د / ابراهيم أنيس .

درجة واحدة من الوضوح ، فالفتحة مثلا أوضح من الضمة والكسرة ، وكذلك ليست كل الأصوات الساكنة على درجة واحدة أيضـــا ، فالأصوات المجهورة أوضح من الأصوات المهموسة .

هذا ، وينبغى أن يعلم أن وضوح الصوت أو عدمه يرجع الى صفة طبيعية فى الصوت لا الى صفه مكتسبة كالطول أو النـــبر كما سيأتى ، ومن منطلق الوضوح فى أصوات اللين أطلق عليهـا قمة ، بينما أطلق على الأصوات الساكنة قاعدة ، كما سيأتى .

هذا ، وقد سبق أن المراد بأصوات اللين فى العربيــة هو حروف المد (الألف والواو والياء) ، وتسمى أصوات لـين طويلة ، أما الحركات وهى الفتحة والضمة والكسرة التى لـم يتبعها حرف مد من جنس حركتها فتسمى أصوات لين قصـيرة ، وقد اعتبر ابن جنى هذه الحركات أبعاض حروف المد ؛ لأن زمن النطق بها يستغرق نصف زمن النطق بحروف المد بصفة عامة .

أشباه أصوات اللين :

هناك صوتان عدهما المحدثون شبيهين بأصوات اللـين فى الوضوح السمعى ، وهما الياء الساكنة غير المسبوقة بحركـة مجانسة ، وكذلك الواو الساكنة غير المسبوقة بحركة مجانسة كما فى بيت ويوم ، وكانا شبيهين بأصوات اللين ، وليسا منهـا ؛ لأن الهواء حال خروجه عند النطق بهما لا ينطلق بقوة ، وانما يسمع له حفيف خفيف بخلاف النطق بحرف اللين الأصلـــى ،

ولذلك يمكن عد هذين الصوتين من أصوات اللين اذا اعتبرنا صفة اللين فيهما وهو الوضوح السمعي الناجم عن انطلاق الهواء الى الخارج اذا سكنتا وجانستهما الحركة السابقة ، كما يمكن عدهما من أشباه اللين اذا سكنتا دون مجانسة للحركة السابقة ، لعدم الوضوح السمعي لوجود نوع من الحفيف حال نطقهما بهذه الصورة ، كما يلاحظ أن الشفتين تنفرجان عند النطق بهما ، كما تنفرجان عند النطق بأصوات اللين الأصلية ، وان كان الانفراج مع الواو يكون على سبيل الاستدارة ، ولعل ذلك هو الذى حمل مجيدى القراءات على الحكم على الواو بأنها تخرج من الشفتين ، ولكن المتأمل تبدو له حقيقة مخرجها بأنه من أقصى اللسان حين يقترب من أقصى الحنك ، كما أن تلك الاستدارة جعلت أصحاب القراءات حين تحدثوا عن الاشمام أشاروا الى امكان الدلالة على الضمة بحركة الشفتين ان كان الحرف الذى وقعت فيه الضمة ساكنا للوقف كما فى الراء فى (رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) - ومن الواضح أن حركة الراء الأخيرة ضمة لأنها خبر ان ، لكنها سكنت للوقف ، وحركة الشفتين هذه ، التى تشير الى الضمة وأطلقوا عليها الاشمام لا يدركها الا البصير ، وهذا شئ ينطق ولا يكتب ، ويرى ولا يسمع ، ومما ألحقوه بأصوات اللين أيضا اللام ، والميم ، والنون ، لوضوحها فى السمع كما سبق .

المقطع الصوتي

أهمية دراسته وصوره :

ترجع أهمية دراسة المقطع الصوتي في الدراسات الصوتية الى التعرف على الوحدات الصوتية البسيطة التي تكونت منها الكلمة ، كما أن ذلك يساعد أيضا في الوقوف على الأجزاء التي تتألف منها التفعيلات العروضية ، فضلا عن أن التعرف على المقاطع الصوتية يسهم في الحكم على عربية الكلمة أو خروجها عن النطاق العربي كما سيأتي .

هذا وقد اتضح مما سبق أن الأصوات بالنسبة لوضوحها في السمع تنقسم الى قسمين :

١ ـ أصوات تتضح لدى الأسماع أكثر من غيرها ، وهي أصوات اللين الطويلة (حروف المد التي جانستها الحركة السابقة عليها) أو القصيرة ، (الحركات مجردة عن المد) ، وقد أطلق علماء الأصوات على هذا النوع اسم القمة ، ومناسبة التسمية أن قمة الجبل هي أعلى ما فيه ، فهي أكثر وضوحا وكذلك أصوات اللين ، وأشباهها كما سبق ، وقد علمنا مما ذكرناه أيضا أن هذا الوضوح يرجع الى انطلاق الهواء من الرئتين الى الحنجرة حتى يصل الى الشفتين دون عائق ، ليحمله الهواء الخارجي الى الأذن .

٢ ـ أصوات يقل وضوحها لدى السمع ، وهي الأصوات

الساكنة ، لأن الهواء عندما ينطلق من الرئتين مارا بأعضاء النطق الى الفم أو الأنف يعوقه بعض العوائق التى تحول دون الانطلاق المطلق كما سبق أن أوضحناه فى انحباس الهواء لانطباق الشفتين عند النطق بالباء مثلا ، أو انحباسه عند التقاء اللسان بأصول الثنايا العليا عند النطق بالدال أو التاء ، وهكذا ...

وقد يكون هذا الانحباس كاملا كما رأينا ، وقد يكون بدرجات متفاوتة فيحدث نوعا من الصفير أو الحفيف على النحو الذى عرضنا له من قبل ، المهم أن الهواء لا ينطلق الانطلاق الطبيعى كما هو الحال فى أصوات اللين ، ولذلك تأثرت درجة وضوح الصوت قوة وضعفا بسبب ذلك ، وقد أطلق علماء الأصوات على هذا النوع من عدم الوضوح أصوات القاعدة أو الواوى لعدم وضوحها الوضوح الكامل كما هو الحال فى أصوات اللين .

والمقطع الصوتى يضم اللونين معا حال النطق به ، كما أنه لا يمكن تجزئته ، فلا نستطيع مثلا أن نفصل بين صوت ساكن كالفاء وحركته كالفتحة ، وهو لين قصير فى قولنا (فتح) ويمكن تعريف المقطع الصوتى بأنه الدفعة الهوائية التى تضم وحدة صوتية بسيطة لا يمكن تجزئتها الى أقل منها لبساطتها .

ومن تتبع تأليف الكلمات العربية وجدنا أنها ترد على خمس صور مقطعية ، ثلاثة منها كثيرة الشيوع فى تأليف هذه الكلمات

وهى :

١ — صوت ساكن + صوت لين قصير كمقاطع فتح الثلاثة .
٢ — صوت ساكن + صوت لين طويل كالمقطع الأول في : قال ، أو يسمع أو شورك .
٣ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن كالمقطع الأول أو الثاني في مصدري الفعلين فتح أو نهم ، وهما فَتْح وفَهْم ويمكن أن تقع هذه المقاطع في الأول أو في الوسط أو في الآخر ، أما المقطعان الآخران فقليلا الشيوع ولا يتأتيان الا في أواخر الكلمات عند الوقف عليها ، وهما :
٤ — صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن كما في الوقوف على كلمة (نان) أو الوقوف على المقاطع الأخيرة في الكلمات التالية : (رحيم ، نستعين — الضالين) .
٥ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان كالوقوف على المقطع الأخير من كلمتي (المستقر — الفقر) وهما : قر ، فر .

هذا ، ولا تسير كل اللغات على نمط واحد في تأليف مقاطعها ، فهناك بعض اللغات تنفر من المقاطع المقفولة (الساكنة) وتؤثر المفتوحة (المتحركة) عليها كلغات وسط أفريقيا ، أما اللغة العربية فقد اشتملت على جميع الألوان المقطعية ، وان كان قد شاع فيها الأنواع الثلاثة الأولى كما سبق ، ولكن النحاة قد أشاروا اشارة ضمنية الى أن اللغة العربية تميل الى المقاطع المقفولة وهي التي تنتهي بساكن عندما أوجبوا سكون الفعل الماضي اذا اتصل به ضمير رفع متحرك

كما في (كتب) . ومن هنا يكون من الممكن أن يتكون ما هو كالكلمة من أربعة مقاطع ساكنة كما في (استفهمتم) .

هذا ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الكلمات المشتقة المجردة من اللواحق وهي الضمائر في الأفعال أو السوابق وهي أداة التعريف في الأسماء لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع ويندر تكوينها من خمسة مقاطع ، كما في : يتعلم ، يتسابق ، فالكلمة الأولى تسير مقاطعها على النحو التالي (ى ت ع ل م) مقطعان من النوع الأول ، وهو صوت ساكن + صوت لين قصير ، ومقطع من النوع الثالث ، وهو صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن ، أما المقطعان الأخيران فهما من النوع الأول (صوت ساكن + صوت لين قصير) .

أما الكلمة الثانية (ى ت سا ب ق) فتتكون من المقاطع التالية :

مقطعان من النوع الأول (صوت ساكن + صوت لين قصير) ومقطع من النوع الثاني (صوت ساكن + لين طويل) ومقطعان من النوع الأول أيضا (صوت ساكن + لين قصير) .

والكلمة العربية مع لواحقها ينبغي ألا تزيد على سبعة مقاطع كما في قوله تعالى : (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) وكما في قوله — سبحانه — : (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) ، وكل من الكلمتين مكون من سبعة مقاطع على النحو التالي :

(ف س يك نى ت هـ مل) (أنل زم لِّ دو ها) .

ومن خلال التعرف على تأليف مقاطع الأصوات العربية يمكن الحكم على الكلمة بعربيتها ، أو عدم عربيتها لأن تأليفها من هذه المقاطع اذا ورد على نحو غير مألوف في العربية — لا تكون عربية كما في الصورتين الآتيتين :

١ — مقطع من النوع الثالث (صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن + مقطعا من النوع الثاني وهو المكون من صوت ساكن + صوت لين طويل ، ولذلك يحكم بعدم عربية الكلمة الواردة على هذا النحو ، كما في كلمتى (مهراجا وسورناجا)

٢ — وكذلك لا يحكم بعربية كلمة مكونة من مقطع من النوع الثاني + مقطعان من النوع الثالث ، وهذه فائدة جليلة لدراسة المقاطع الصوتية تضاف الى ما ذكره علماء اللغة من مقاييس أخرى للحكم بعربية الكلمة ، حيث ذكروا أن عجمة الكلمة ترجع الى كونها غير موافقة لنظام تأليف الكلمات العربية كأن تبدأ الكلمة بنون بعدها راء كما في (نرجس) ، أو تكون مختومة بزاي مسبوقة بدال كما في (مهندز) ولكنهم لم يتعرضوا في التفرقة بين الكلمات العربية وغيرها لنظام المقاطع الصوتية على النحو المذكور[1] .

---

(١) أنظر في هذا الموضوع : التجويد والأصوات /٦٢ دكتور / ابراهيم نجا ، والأصوات اللغوية ص: ١٥٩ د / ابراهيم أنيس .

طول الصوت اللغـــــوى

الأصوات اللغوية تستغرق زمنا معينا عند النطق بهـــــا ، لكنها غير متساوية فيه ، لأن منها ما هو صوت ساكن يكون زمـــن النطق به أقل من صوت اللين لأمر يرجع الى طبيعة انطـــــلاق الهواء دون عائق فى صوت اللين بخلاف الصوت الساكن الذى يحتجز فيه الهواء فى بعض أعضاء النطق بعد انطلاقه مـــــن الرئتين الى خارج الشفتين أو الأنف ، وقد ترتب على ذلـــك طول الزمن الذى يستغرقه صوت اللين أكثر من الزمن الـــذى يستغرقه الصوت الساكن ، وقد نتج عن هذا أيضا وضوح صـوت اللين أكثر من الصوت الساكن كما سبق .

وكان معلمو القراء قديما القراءة للمبتدئين يوضحون لهـــم الفرق بين الزمن الذى يستغرقه النطق بصوت اللين ، وهـــو مقدار قبض الاصبع وبسطه ، فاذا وليه همزة متصلة فى نفـــس الكلمة ، أو فى كلمة أخرى ، زاد زمن النطق به الى ثلاث حركات أما الصوت الساكن فيستغرق زمن النطق به زمنا أقل من صوت اللين القصــــير .

وكان اهتمام القراء بتحديد الزمن الذى يستغرقه النطـق بالصوت مرتبطا بأهمية النطق الصحيح للقرآن الكريم ، وان كان النطق الصحيح للغة على درجة كبيرة من الأهمية فى ذاتـــه ، لأن الاسراع فى نطق الحرف أو الابطاء به على غير الوجــــه

النحو يجعل لهجته شاذة غريبة على الأذن العربيـــــة ، وكأنها لهجة أجنبية .

وعلى هذا الأساس يمكن تعريف طول الصوت اللغـــوى بأنه الزمن الذى يستغرقه النطق بحرف من الحروف فى أى لغـــة من اللغات ، وخير وسيلة لتعلم النطق الصحيح للصـــوت اللغوى بحيث يستغرق الزمن المناسب له دون زيادة أو نقـص هو كثرة المران والتدريب كما كان يفعل معلمو القرآن للمبتدئين ، لأن تحديد الزمن تحديدا دقيقا لكل صوت لغوى فى كل لغـــة أمر عسير يؤدى الى التعقيد ، وان كان العلماء المحدثون قـــد اتجهوا الى هذه المحاولة فقدروا نطق الحرف بنسبة مئويـــة معينة من الثانية ، فقدروا أن الدال المتطرفة فى اللغـــــة الانجليزية تستغرق فى النطق بها حوالى ٥٠ر٠ من الثانيـة ، فى حين أن صوت اللين (A) يستغرق مدة أطول هى حوالـى ٢٤ر٠ من الثانية ، ولما كانت الفتحة فى العربية صوت لين قصيرا فانها تستغرق فى الزمن نصف صوت اللين الطويل ، وهو ألـف المد التالى للفتحة المجانسة لها ، وكذلك الحال مع الكسـرة والضمة ، ولا يختلف زمن النطق بأصوات اللين الطويلة فى العربية .

وتأسيسا على هذا وعلى طبيعة مجرى الهواء فى أثناء النطق بالحرف من حيث انطلاقه بدون عائق أو انحباسه انحباسا مطلقـا لجزء من الثانية أو ضيق مجراه يمكن ترتيب الأصوات اللغويـــة من حيث الزمن الذى يستغرقه النطق بها طولا أو وسطا أو قصرا على النحو الآتى :—

١ ـ أصوات اللين الطويلة ، وهى ما اصطلح الأقدمون على تسميتها حروف مد .

٢ ـ أصوات اللين القصيرة ، وهى المعروفة بالحركات لأن زمن النطق بها يكون نصف زمن النطق بسابقتها ، ولذلك سماها ابن جنى أبعاض الحروف ، والفتحة أطول من الكسرة أو الضمة .

٣ ـ الأصوات الأنفية وهى الميم والنون لاحتياج تحويل مجرى الهواء من الفم الى الأنف عند النطق بهما الى زمن أكثر من غيره .

٤ ـ الأصوات الجانبية كالضاد ، لأنها تستغرق حيزا كبيرا من الفم ، فتحتاج الى زمن أطول .

٥ ـ الأصوات المكررة كالراء ، لأن تذبذب اللسان بها عند النطق يحوجها الى زمن أطول .

٦ ـ الأصوات الساكنة التى يصحبها صوت زائد عن وصفها كصوت الصفير فى الزاء والسين والصاد ، أو الحفيف فى الفاء .

٧ ـ الأصوات الساكنة الشديدة (الانفجارية) لانحباس الهواء لحظة معينة فى بعض مناطق النطق ، كما سبق، ولا يظهر الفرق فى الوضوح جليا عند النطق بالأصوات الساكنة بخلاف الفرق بين أصوات اللين الطويلة والقصيرة .

هذه صورة تقريبية لترتيب الأصوات على حسب الزمن الذى يستغرقه نطق كل منها لطبيعة معينة وخاصية ذاتية فى الصوت ولكن قد تطرأ عوامل معينة خارجة عن طبيعة الحرف فتغير زمن

النطق به طولا أو قصرا ، ومن ذلك أن حروف المد المعروفة بأصوات اللين تمد مدا طبيعيا بمقدار حركتين الا اذا وليهما همزة متصلة كما فى السماء والبقاء فانها تمد زمنا أطول من الأول ، فيكون بمقدار ثلاث حركات ، وهذا هو المد الفرعى الذى ذكره القراء ، وقد يمتد هذا المد عندهم الى ست حركات حسب اقتضاء المقام ، وفيما يلى بيان بأهم العوامل المؤثرة فى طول الصوت اللغوى.

أهم العوامل المؤثرة فى طول الصوت اللغوى:

العامل الأول : النبر :

ويعنى نشاط جميع أعضاء النطق عند الضغط على مقطع معين ، ولذلك يحتاج الصوت المنبور الى زمن أكبر من نطقه غير منبور ، وبذلك يكون الصوت المنبور أكثر وضوحا فى السمع من الصوت غير المنبور ، ونبر صوت معين يشعر السامع بأهمية هذا الصوت أكثر من غيره ، وهذا أمر يظهر فى لغة الحديث دون الكتابة ، وبذلك يكون للنبر أهمية جليلة فى دلالة الصوت اللغوى وان اختلفت هذه الدلالة من لغة أخرى ، فالنبر عند الصينيين يكون أساسا فى فهم مدلول اللفظ ، وبخاصة اذا كان اللفظ دالا على معان متعددة مثل كلمة (نان) التى تدل على النوم ، والشجاع والواجب والمحروق من الأسماء ، كما تدل على : يحرق ويقسم من الأفعال ، والمقطع الذى ينبر منها هو

الذى يحدد المراد ، فما أشبه هذا بالمشترك اللفظى فى العربية مثل كلمة (عين) التى تدل على معان متعددة ، لكن السياق لا النبر هو الذى يحدد المراد منها فى كل موقع.

مواضع النبر :

تختلف مواضع النبر باختلاف اللغات ، فالفرنسيون يتبعون نظاما موحدا فى النبر ، وهو المقطع الأخير ، بينما لا يسير الانجليز على نظام معين فى النبر ، أما فى العربية فليس لدينا مرشد محدد فى ذلك لانقراض الفصحاء ، وعدم المشافهة أو التسجيل عن الخلص من العرب ، ولذلك لا نجد لنا سبيلا الى ذلك الا القراءات القرآنية المنقولة الينا بالتواتر ، والتى حرص أصحابها على النطق الصحيح للغة القرآن الكريم، لا من حيث ضبط بنية الكلمة ، أو آخرها فحسب ، بل من حيث الضغط على أحد مقاطعها للاسهام فى الوفاء بالمعنى المراد منها .

وللنبر مواضع فى اللغة العربية ، فتارة يقع على المقطع الأخير ، وتارة يقع على المقطع الذى قبل الأخير، وتارة ثالثة يقع على المقطع الأول ، وسنوضح فيما يلى هذه المواضع .

١ ــ النبر على المقطع الأخير، يتحقق ذلك فى صورتين :

أ ــ أن يكون المقطع مكونا من صوتين ساكنين بينهما صوت لين طويل كما فى قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون

بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) ، فالمقطع الأخير من كلمة (لقدير) هو (دير) عند الوقف عليه ، وهو مكون من صوتين ساكنين ، هما : الدال والراء ، بينهما صوت لين طويل هو : كسرة الدال مع الياء المجانسة لها ، ومثل ذلك الفواصل القرآنية الأخرى المختومة بحرف ساكن مسبوق بمد مجانس لما قبله كما في : يشكرون ـ مبين ـ بعيد ...

ب ـ أن يكون المقطع مكونا من صوت ساكن يليه صوت لين قصير يقع بعده صوتان ساكنان ، كما في الوقف على كلمة (المفر) أو (المستقر) في قوله تعالى : (يقول الانسان يومئذ أين المفر ، كلا لا وزر الى ربك يومئذ المستقر) ، والمقطع الأخير من الكلمة الأولى هو (فر) ومن الثانية (قر) وكل منهما مكون من صوت ساكن + لين قصير + صوتان ساكنان في حال الوقف على كل منهما .

٢ ـ النبر على المقطع السابق على الأخير :

ويتحقق هذا اذا لم يكن المقطع الأخير من النوعين السابقين ولم يكن كذلك من النوع الذى توالت فيه ثلاثة مقاطع متماثلة كما في : كتب ، ويتحقق ذلك في مثل كلمتى : يذهبكم ، وتقرضهم ، في قوله تعالى : (ان يشأ يذهبكم ..) ، وقوله : (واذا غربت تقرضهم) ، ومقاطع الأولى : يذ ـ هب ـ كم ، والنبر على : هب ، ومقاطع الثانية : تق ـ رض ـ هم ، والنبر على (رض) ، وكل ما كان على أمثال هاتين الكلمتين يكون

النبر فيه على المقطع الذى قبل الأخير اذا كان مقطعا من النوع الثانى أو الثالث كما سبق .

٣ ـ النبر على المقطع الأول :

ويتحقق ذلك اذا كانت الكلمة مكونة من ثلاثة مقاطع متماثلة كما فى كتب ، فيكون النبر على الكاف كما فى قوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) ، وكذلك يكون النبر على المقطع الأول ، اذا كانت الكلمة مكونة من أكثر من ثلاثة مقاطع وكانت الثلاثة الأولى من نوع واحد كما فى : بلحة ـ عنبة ـ شجرة ، فالنبر على الباء والعين والشين .

ويمكن تلخيص مواضع النبر فى الكلمة العربية فيما يلى :

" ينظر أولا الى المقطع الأخير فاذا كان من النوعين : الرابع أو الخامس يكون هو موضع النبر ، والا نظر الى المقطع الذى قبل الأخير ، فان كان من النوع الثانى أو الثالث حكمنا بأنه موضع للنبر ، أما اذا كان من النوع الأول نظر الى ما قبله فان كان مثله ، أى من النوع الأول أيضا ، كان النبر على هذا المقطع الثالث حين نعد من آخر الكلمة ، ولا يكون النبر على المقطع الرابع حين نعد من الآخر الا فى حالة واحدة ، هى أن تكون المقاطع الثلاثة التى قبل الأخير من النوع الأول[1] " .

وأشهر مواضع النبر هو المقطع السابق على المقطع الأخير .

---

(١) الأصوات اللغوية / ١٧٢ .

انتقال النبر :

بعد أن عرفنا المواضع التي يقع عليها النبر نخوض فيما يلي لبعض العوامل المؤثرة في تغيير موضع النبر عن المواقع التي ذكرناها ، ومن ذلك :

١ ـ الاشتقاق :

وهو عامل هام في تغيير مواقع النبر ، فالفعل (كتب) مثلا يكون النبر فيه على الكاف كما سبق ، لكن اذا صغنا منه المضارع (يكتب) يكون مكونا من صوتين ساكنين هما : الياء والكاف بينهما صوت لين قصير هو الفتحة ، والمقطع الثاني وهو التاء مكون من صوت ساكن + صوت لين قصير ، والمقطع الثالث وهو الباء مكون من صوت ساكن + صوت لين قصير .

وكلمة (يكتب) على هذا النحو لا ينطبق عليها مايستدعى وضع النبر على المقطع الأول ، أو وضعه على المقطع الأخير ، وبذلك يكون النبر على المقطع السابق على الأخير وهو التاء في الفعل (يكتب) وأشباهه .

٢ ـ الجزم :

لا شك أن الجزم يحدث تغييرا في المضارع يستدعى تغيير النبر فيه ، فاذا قلنا مثلا : لم يكتب ، صارت الكلمة مكونة من مقطعين هما : يك ـ تب ، وبذلك أصبحت الياء التي

كانت مقطعا مستقلا جزءا من مقطع هنا ، فيكون النبر على المقطع الأول وهو (يك) فى هذا الفعل وأشباهه لأن المقطع السابق على الأخير من النوع الثالث .

٣ ــ اتصال الضمائر :

اتصال الضمائر بالفعل له أثر فعال فى تغيير مقاطع الفعل والمقصود بالضمائر هنا ضمائر الرفع المتحركة التى تتصل بالماضى دون الضمائر الساكنة ، لأنها لا تغير طبيعة الفعل ، فالفعل الماضى مثلا (ذهبت) عندما اتصلت به تاء الفاعل تغيرت الباء من الفتح الى السكون ، بخلاف ضمير الرفع الساكن كألف الاثنين أو واو الجماعة ، اذا قلت : ذهبا أو ذهبوا ، فانهما لم يحدثا فى الفعل تغييرا فى طبيعة مقاطعه ، أما عند اتصاله بتاء الفاعل أو نا الفاعلين فانه يصير مكونا من مقاطع غير متماثلة ، وهى : ذ ــ هب ــ ت أو ذ ــ هب ــ نا ، فيكون النبر على المقطع السابق على الأخير وهو (هب) لأنه من النوع الثالث.

النبر فى الجمل :

هناك نوع من النبر لا يقع على مقطع من مقاطع الكلمة كما سبق ، ولكنه يقع على كلمة معينة فى داخل جملة بعينها لمزيد اهتمام بهذه الكلمة فى هذه الجملة من المتكلم ، وهذا اللون شائع فى جميع اللغات لتحقيق أغراض معينة يقصدها المتكلم بلغته .

ففى العربية مثلا اذا قلت : هل زارك على أمس ، يمكن أن يكون النبر على الفعل (زارك) ان كان هو موضع الاهتمام للشك فى الزيارة ، ويمكن أن يكون على كلمة (على) ان كان الشك فى الزائر ، واذا لم يكن هناك شك فى الفعل أو الفاعل وانما كان فى زمن الزيارة هل كان بالأمس ، أو قبل الأمس أو اليوم ، كان النبر على زمن الزيارة وهو أمس ، والنبر على هذا يحقق غرضا معينا للمتكلم مرتبطا بكلمة معينة فى الجملة ، ولا علاقة له بدرجة الصوت أو النغمة الموسيقية للكلمة ، لاعتماد كل منهما على أمور أخرى غير النبر .

العامل الثانى : التنغيم :

ومن العوامل المؤثرة فى طول الصوت اللغوى التنغيم ، وهو تنويع الأداء للعبارة حسب المقام المقولة فيه ، أو هو ارتفاع الصوت أو انخفاضه مراعاة للمقام المؤدى فيه ، ويقترب التنغيم بهذا الاعتبار من المصطلح البلاغى المشهور وهو المقام الذى يستدعى مواصفات خاصة فى الكلام بحيث يطابق عن طريقها مقتضيات هذا المقام أو الحال ، فمقام التهنئة والسرور غير مقام الحزن ، غير مقام الاقناع بفكرة معينة ، ولذلك وجب على المتكلم أن يراعى خصوصيات معينة فى اختيار ألفاظه وجمله وعباراته ، تناسب هذا المقام ، وهذا ما تقتضيه بلاغة الكلام ، أما التنغيم فيسير فى هذا الركاب ، لكن لابد لتحقيقه من شئ آخر هو رفع الصوت أو خفضه ، ونبر بعض المقاطع أو الكلمات فى الجمل على

حسب مقتضيات المقام بحيث يكون اختيار الألفاظ والجمـــــل ومراعاة خصوصيات معينة فى تراكيبها كالتوكيد أو عدمه والتقديـم أو التأخير ، والتعريف أو التنكير ... الخ . من أجل الوفــاء بالمقام مع مراعاة خصوصيات معينة فى الأداء الصوتى تساعد على تحقيق الغرض المقصود .

ولا شك أن للتنغيم دورا مهما فى جميع اللغات ، وبخاصـة اللغات التى لا تعتمد على قواعد مضبوطة ، لأن التنغيم قد يكون عوضا عن ذلك ، فقولك مثلا : "على عندك" يحتمل أن يكون استفهاما أو اخبارا فى ذاته ، لكن أداء المتكلم له بطريقة صوتية معينـة تصاحبها بعض الملامح التى تبدو على وجهه ، يحدد المعنى المــراد .

العامل الثالث : التأثير بالمجاورة :

أشرنا فيما سبق الى أن بعض الحروف يزداد طولها بمجاورتها لغيرها كزيادة مد حرف اللين وهو الألف اذا وقعت بعد همـزة كما فى : يشاءون ، وقد عنى القراء قديما بالحديث عن اطالـة بعض الأصوات الأخرى اذا وقعت فى موضع معين اهتماما بابرازها عن طريق اطالـة نطقها ، من ذلك ما ذهبوا اليه من ادغام النون الساكنة اذا وليها ياء أو واو كما فى : (ومن يعتصـم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم) ، وقوله جل شأنه : (وما لهم من دونه من وال) ، ولا شك أن ادغام النون فيما بعدهــا

اطالة لها مع أنها حرف ساكن قصير ، وقد تكون اطالة النـــون ناتجة عن اخفائها فيما بعدها كما في (خلق الانسان مــن صلصال كالفخار) .

أما أصوات اللين فقد علمنا أنها طويلة بطبيعتها ، لكنها ليست على درجة واحدة في هذا الطول ، فأطولها حـــروف اللين المرادفة لحروف المد في العربية ، وهي الألف أو الـــواو أو الياء ، في مثل : يسعى — يسمو — يرمى ، على التوالـــى ، فاذا جزمت هذه الأفعال نقيل : لم يسع ، لم يسم ، لم يـــرم ، تحولت حروف اللين الطويلة الى قصيرة ، لقيام الحركات مقـــام الحروف ، والحركات أبعاض الحروف ، كما يقول ابن جني ، ويلى ذلك في التدرج من الطول الى القصر الوقف بالروم على الكلمات الموقوف عليها بالسكون والمسبوقة بحرف مد كما في : نستعين ، الرجيم — الرحيم ، بمعنى ألا يكون النطق بالسكون خالصـــا ، وانما يكون مشوبا بالاشارة إلى الضمة التي هي الحركة الأصليـــة للحرف ، وهذا معنى الروم ، أي روم الحركة الأصلية للحـــرف ، ويطلق عليه الاشمام أيضا .

واذا كانت أصوات اللين الطويلة طويلة بطبيعتها ، فـــان هناك بعض المواضع التي تتجاورفيها أصوات اللين مع غيرهـــا ... هذا الى زيادة طولها ، وقد أشرنا الى بعضها ، ومـــن ذلك :

١ — أن يقع بعد حرف اللين همزة في كلمة واحدة ، كما فـــي

(وما تشاءون الا أن يشاء الله) وهذا هو المعروف بالمد المتصل ، وقد تكون الهمزة فى كلمة أخرى فيسمى بالمد المنفصل كما فى : (... قوا أنفسكم وأهليكم نارا ...) ، وفى : (يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم) ، وفى هذه الحالة يمتد حرف اللين بمقدار ثلاث حركات الى ستة حركات .

٢ — أن يقع بعد حرف المد حرف مدغم فى مثله كما فى : (الحاقة ، ما الحاقة) .

ولعل السر فى اطالة حرف اللين فى هذين الموقفين هو الحرص على ابراز حرف اللين حتى لا يتأثر بما جاوره من الهمزة أو الادغام لتنافى الحالين عند النطق بهما اذ ان من طبيعة النطق بحرف اللين أن ينطلق معه مجرى الهواء دون عائق ، ولذلك تنبسط معه فتحة المزمار ، أما الهمزة فهى صوت انفجارى يقتضى انطباق فتحة المزمار انطباقا تاما يعقبه انفراجها فجأة ليتحقق النطق عن طريق الهواء المندفع ، فلولا اطالة صوت اللين لذاب فيما بعده لتناقضه معه فى طبيعة النطق ، فاطالة هذا الصوت يهيئ الفرصة لنطق ما بعده وهو الهمزة . وأما الادغام فلأن طبيعة اللغة العربية ونسجها تستلزم قصر أصوات اللين الطويلة حين يليها صوتان ساكنان وهما الادغام ، ومن هنا كان الحرص على ابقاء صوت اللين على طوله حتى لا يتأثر بالصوتين الساكنين بعده "(١) .

---

(١) انظر التجويد والأصوات د / ابراهيم نجا ، والأصوات اللغوية د / [illegible]

الانسجام الصوتـــــي

أشرنا فيما سبق الى ضرورة مناسبة الأصوات لمقامها من حيث حروفها وكلماتها وجملها ، وضرورة تعاضد الأصوات فى الوفـــاء بالمراد ، وأن طريقة أداء الأصوات لها تأثير مباشر على مناسبته لمقامه ، فمقام الســـرور يقتضى اعتبارات معينة فى الحــــروف والألفاظ ، وتكوين الجمل والأصوات التى تؤدى بها ، وهــــو يختلف فى ذلك عن مقام الحزن أو مقام الذم أو المــــــدح ، وللغات الأخرى طرق معينة فى ذلك أشرنا الى بعضها فيمـــا سبق ، والذى يعنينا هنا هو ايراد ظواهر معينة للانسجـــام الصوتى فى العربية تساعد على الوفاء بالغرض المقصود مـــــن العبارة ، والمقصود بالانسجام الصوتى هنا هو الأمر الـــذى يلحظه المتكلم عند النطق باللفظ أو جملة الكلام ليتحقـــــق به الانسجام الصوتى ، ولهذا الانسجام صور متعددة منها :

١ ـ المماثلة :

مما ينبغى أن يعلم أن الأصوات المتجاورة فى اللغة العربية يتأثر بعضها ببعض ، ولذلك نجد النون الساكنة تدغم فى الياء التالية لها ، فيصبحان كأنهما شئ واحد كما فى قوله تعالـى : (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) ، وقد تخفى النون الساكنة فى الصاد كما سبق فى قوله تعالى : (ولقد خلقنا الانسان من صلصـــال

من حطأ مسنون) ، وقد قام ذلك كله على نوع من التماثل بين تلك الحروف ، وبه يتحقق الانسجام الصوتى بينها .

ومن هذا المنطلق أيضا نجد ظاهرة أخرى للتماثل عند بناء صيغة " افتعل" من كلمة مبدوءة بحرف مطبق كالصاد فى " اصطبر " ، فأصلها " اصتبر " ، والضاد فى " اضطرب " وأصلها " اضترب " ، وتقوم المماثلة هنا بين الصاد والطاء فى الأولى ، والضاد والطاء فى الثانية ، على أن كلا من هذه الحروف هى حروف اطباق كما سبق ، أما التاء فليست من حروف الاطباق .

هذا وقد يقلب الحرف الأول فى صيغة " افتعل" هذه الى حرف مماثل تماما للحرف الثانى فيدغم فيه كما فى اتمد ، وأصلها " اوتمد" ، فقلبت الواو تاء وأدغمت فى التاء طلبا للتماثل وتحقيقا للانسجام الصوتى بين الحرفين ، ومثل ذلك "اتسر" أيضا من (اليسر" ، وأصلها "ايتسر" ، ومن الواضح هنا أن الصوت الأول تأثر بالثانى فانقلب الى مماثل له ، ولذلك يسمى هذا التأثر تأثرا رجعيا .

أما النوع السابق ، وهو الذى تأثر فيه الثانى بالأول كما فى : " اصطبر " و " اضطرب " ، حيث قلبت التاء فيهما (أصلهما : اصتبر ، اضترب) ، الى طاء تأثرا بالحرف الأول فيسمى هذا التأثر تأثرا تقدميا ، وكل هذا يدور فى فلك الانسجام الصوتى

لأن عدم قلب الحرف الأول الى مجانسه كما فى " اتعد " ، أوعدم قلب الثانى الى مماثله كما في " اصطبر " يسبب نوعا من الثقل فى نطق الكلمة لعدم المماثلة بين الحروف كما سبق .

٢ ـ الجهر والهمس :

اذا التقى صوت مجهور بآخر مهموس دون فاصل بينهما فان أحدهما قد يتحول الى جنس الآخر تحقيقا للتجانس الصوتى ، فيكون الصوتان مجهورين معا ، أو مهموسين معا ، بشرط ألا يكون هناك فاصل بينهما ، وأن يكون أولهما ساكنا ، ويتضح ذلك فى صيغة " افتعل " أيضا حين يكون الحرف الأول دالا أو ذالا أو زايا ، وهذه كلها من الحروف المجهورة ، فلا يناسبها وجود المهموس بعدها كالتاء فلا يقال فى صيغة " افتعل " من ذكر اذتكر ، وانما يقال " اذّكر " ، وكذلك فى دان وزان يقال : ادّان ، وازّان ، لا ادتكر ، وازتان ، لأن التاء فى كل هذه الصيغ من الأصوات المهموسة ، فتقلب الى صوت مجهور مماثل للصوت الأول ثم تدغم فيه تيسيرا لعملية النطق وطلبا للانسجام الصوتى ، أو تقلب التاء دالا فى ازتان لتجانس الزاى فيقال : " ازدان " .

وقد يبقى الصوتان على وضعهما دون قلب مع الاختلاف فى الجهر والهمس ، كما فى صيغة افتعل من جمع ، فيقال فيها اجتمع ببقاء كل منهما على حاله لعدم الثقل ، وبعض العرب يقلبون التاء هنا الى صوت مجهور هو الدال ليخف نطقه أكثر

بعد المجهور فيقال اجدمع بدلا من اجتمع، واذا اقـــترب الصوتان فى المخرج فانه يصعب النطق بهما متجاوريـــــن ، ولذلك تحتم قلب التاء الى طاء فى صيغة " افتعل " من ظلم، فنقول : اظطلم ، لا اظتلم ؛ لأن الظاء من حروف الاطباق وأما التاء فهى من حروف الانفتاح ، ولذلك قربت مسافة النطـــق بينهما ، كما كان هناك قرب فى المخرج أيضا ، لأن مخـــرج الظاء من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا ومخرج التـــاء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا .

٣ ـ انتقال مجرى الهواء من الفم الى الأنف :

علمنا مما سبق أن الهواء عندما يخرج من الرئتين ينطلـــق الى الحنجرة ثم الى الحلق ، ولكنه قد يجد أقصى الحنك هابطا قد سد فتحة الفم ، فيتجه الى الأنف بدلا من الفم ، وذلك عند النطق ببعض الأصوات كالنون الصغيرة أو التنوين ، ويصحـــب هذا التغيير فى مجرى الهواء نوع من الحفيف لا يكاد يسمع وهـو نوع من التغيير فى صوت الحرف .

وتظهر هذه الصورة فى أن النون الساكنة أو التنويـــــن وهو نون ساكنة أيضا ، اذا وقع بعدهما الباء تحولتا الى ميم ساكـنة كما فى قوله تعالى : (يا آدم أنبئهم بأسمائهـــم) وقد نتج عن هذا التحول أمران : أولهما : اقتراب الميم التى

تحولت اليها النون من الباء في النطق لوصبح كل منهما صوتا شفويا • وثانيهما : احتفاظ النون بالغنة الناجمة عن تحول مجرى الهواء من الفم الى الأنف ، لأن الميم من أصوات الغنة أيضا كالنون • ومثاله في التنوين : (لنسفعا بالناصية) •

وكذلك الحال عند النطق بالباء الساكنة المتبوعة بالميم ، كما في قوله سبحانه : (يا بني اركب معنا) ، حيث تحولت الباء الى ميم وأدغمت الميم في الميم ، وكلا الحرفين ينطق به من الشفة ، وكانت هناك الغنة الناجمة عن تحويل مجرى الهواء من الفم الى الأنف على النحو السابق •

٤ — تغيير صفة الصوت من الشدة الى الرخاوة :

يحدث هذا عندما يسمى بظاهرة الادغام كادغام الدال وهي حرف شديد في الذال وهي حرف رخو كما في قوله تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) •

وهذا يتم حينما ينتقل مخرج الدال الذي ينحبس معه الهواء عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا الى مخرج الذال وهي من الأصوات اللثوية •

كما يتحقق ذلك أيضا بادغام التاء في الثاء بعد انتقال مخرج التاء الى الأصوات اللثوية ، فتصبح صوتا رخوا كالثاء بعد أن كانت صوتا شديدا ، ولذلك يسمح للهواء بالمرور معها ،

كما أن الثاء والتاء من الأصوات المهموسة ، وبذلك يتحد الصوتان مخرجا وصفة فى الهمس والرخاوة ، وشاهد ذلك قوله تعالى : (قال قائل منهم كم لبثتم) .

٥ ـ الادغام :

اذا كان هناك حرفان متحدان ملتقيان ، وسكن أولهما وجب ادغامهما تيسيرا للنطق بهما ، كادغام الطائين فى قطَّع ، والسينين فى كسَّر ، والذالين فى هذَّب ، وهذا الادغام ليس هو المقصود هنا ، وانما يقصد به هنا التقاء حرفين متحدين مخرجا ، ومختلفين صفة كالدال والتاء ، أما اتحاد مخرجهما فانهما يخرجان من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، وأما اختلافهما صفة ، فلأن الدال صوت مجهور ، وأما التاء فصوت مهموس ، واذا كان الصوتان على هذا النحو جاز ادغام أولهما فى ثانيهما تيسيرا للنطق ، وتحقيقا للانسجام الصوتى أيضا ، فكأنهما صوت واحد ، وذلك كما فى قوله تعالى : (قد تبين الرشد من الغى) ولابد من سكون الحرف الأول منهما ، ويتحقق ذلك أيضا

فى الثناء حرفين متقاربين فى المخرج والصفة كالدال والسين ،
أما قربهما فى المخرج فلأن الدال - كما سبق - تخرج من طرف
اللسان مع أصول الثنايا العليا ، وأما السين فتخرج من طرف
اللسان مع أطراف الثنايا السفلى ، فاذا سكن الحرف الأول منهما
جاز ادغامه فى ثانيه كما فى قوله تعالى :(قد سمع الله قول التى
تجادلك فى زوجها) ، وأما التقارب فى الصفة فلأن الدال صوت
شديد والسين صوت رخو ، وأما اذا كان الحرفان متحدين فى
المخرج والصفة كاللام والراء وسكن أولهما وجب ادغامه فى ثانيه
كما فى (وقل رب زدنى علما)(١) .

وبهذه الآية الكريمة نختم حديثنا عن الاطار العام
النظرى للأصوات اللغوية ، لننتقل بعد ذلك الى بعض القضايا
المتعلقة بمشاكلة الصوت لمعناه فى اللغة العربية، وبالله التوفيق

* * *

---

(١) انظر الأصوات اللغوية - الفصل السادس ، د / ابراهيم
أنيس ، وكذلك : التجويد والأصوات، د / ابراهيم نجا
ص: ٧٣ وما بعدها .

الفصل الثالث

مشاكلة الأصوات لمعانيها

العلاقة بين الصوت ومعناه

تمهيـــــد :

سبق أن أشرنا الى أن اللغة هي أهم وسائل الاتصال بين البشر ، كما أنها أهم وسيلة أيضا للتعبير عما في النفـــس ، والمتكلم البليغ يستطيع أن يوظف اللغة توظيفا دقيقا يفي بالمراد حتى يجعل المخاطب يشاركه احساسه وشعوره ، فيرى رؤيتــــه ويحكم حكمه ، ويتجاوب مع شعوره ووجدانه .

ولكي يستطيع المتكلم أن يصل الى ذلك عليه أن يختـــــار ألفاظه بعناية فائقة ، وأن يصوغ منها تراكيبه صياغات خاصـــة دقيقة تنصهر فيها مفرداته ، تتزوع افرادا واحدا ، وكأنها لفـــظ واحد في التعبير عن مراده ، وهذا ما يمكن أن يسمى ابداعا ، ومن أهم جوانب هذا الابداع الايقاع الصوتي الموسيقي علــــى المستوى الخارجي كالوزن والقافية ، أو المستوى الداخلــي ، كاختيار الألفاظ الموحية ، والتناغم بين أصواتها على مستوى الحرف أو الكلمة أو التراكيب ، لتكون هناك مشاكلة بين الأصــــوات ومعانيها ، وهذا جانب مهم في الوفاء بالغرض من الكـــلام ، ويدخل أيضا في مطابقة الكلام لمقتضى الحال الذي جعلـــه البلاغيون عصب البلاغة وقوامها .

وسنركز في حديثنا التالي عن أثر الجانب الصوتي في اللغـة

على أهمية هذا الجانب في الوفاء بغرض المتكلم ، سواء أكان ذلك على مستوى الصوت اللغوي في الحرف أو في الكلمة ، أو في نظم الأسلوب .

وقبل أن نتناول الجانب التطبيقي للأصوات اللغوية نورد خلاصة لما عرضه الدكتور / ابراهيم أنيس ، حول مشاكلة الصوت لمعناه في اللغة العربية ، ثم نعقب عليه بما نـراه ثم نعضد هذا بما نورده من تطبيقات متنوعة . وفيما يلي عرض للخلاصة المشار اليها .

ثار جدل كبير حول العلاقة بين أصوات اللغة والمعاني المرتبطة بها ، فذهب فريق من الباحثين الى أنه لا علاقة مطردة بين الصوت ومعناه ، وأن الأمر في هذه العلاقة اذا تحققت لا يعدو أن يكون اصطلاحا عرفيا جرى عليه الناس في كلامهم ، ويمكن حصر أدلة هذا الفريق فيما يلي :ـ

١ ـ الكلمة الواحدة في اللغة الواحدة يعبر بها أحيانا عن عدة معان مختلفة ، وهذا ما نسميه بالمشترك اللفظي ، مثل كلمة (عين) ، فقد يعبر بها عن العين المبصرة أو عين الماء أو السلعة أو الجاسوس ... وهكذا .

٢ ـ قد تدل عدة ألفاظ على معنى واحد مثل : أسد ، ليث ـ هزبر ـ غضنفر .. وهو ما نسميه بالترادف اللفظي الذي تختلف فيه الأصوات مع الاتحاد في المعنى .

٣ - خضوع الأصوات والمعانى أحيانا للتطور المستمر ، فقد تتطور الأصوات وتبقى المعانى على حالها ، أو تتطور المعانى وتبقى الأصوات على حالها .

والقائلون بهذا الرأى الذى ينكر اطراد العلاقة بين الصوت ومعناه يرتكزون على التتبع والاستقراء والمنطق والبعد عن الغموض الذى يعلو على المدارك والأذهان .

أما الفريق الآخر ، فيرى أن هناك علاقة وثيقة بين الصوت والمعنى تحمل واضع اللفظ على مناسبة معناه ، والا لكان تخصيص اسم معين بمعنى معين ترجيحا بلا مرجح ، وكان بعضهم يقول : انه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل : ما معنى "اذغاغ" وهو بالفارسية الحجر ، فقال : أجد فيه يبسا شديدا وأراه الحجر .

ولكننا فى النهاية لا نستطيع الجزم المطلق بانعدام العلاقة بين الصوت ومعناه أو تحققها مطلقا وغاية ما يمكن الوصول اليه ، وبخاصة فيما يتعلق بلغتنا العربية هو أن هناك فى اللغة معانى تتطلب أصواتا دون غيرها ، وربما كان من العسير حصر تلك المجالات اللغوية التى تقوم على هذه الظاهرة ، ونكتفى هنا بالاشارة الى أهم تلك المجالات فيما يلى :-

١ - حين تكون أصوات الكلمات تقليدا مباشرا لأصوات طبيعية للانسان أو غيره كالقهقهة والغمغمة والضوضاء والنحنحة والتأوه والغطيط والشخير وخرير المياه ورغاء الناقة

هما ظاهرتان لغويتان خاصتان ، ولا يعنى عدم تحقق هـذه المشاكلة بين الصوت ومعناه فيهما — ان ثبت اطراد ذلك — عدم تحققها فى اللغة بصفة عامة ، كما أن موضوع التطور المستمر فـى اللغة وأصواتها لا ينقض القاعدة أيضا ؛ لأن المعول عليه هـو أساس هذه اللغة كما نطق به أصحابها الأوائل أما مسألـة التطور فهذا شئ آخر طارئ على الأصول الأولى ، والعـبرة بالأصل كما ورد على لسان أصحابه . أما قضية ربط موضـوع المشاكلة بين الألفاظ ومعانيها بالجانب الأدبى فى اللغـة دون الجانب المنطقى الموضوعى ، فهذا لا يضر القضية فـى شئ ؛ لأن اللغة العربية بطبيعتها لغة شاعرة تخاطب الوجدان والشعور من خلال مهارة الكاتب أو المتكلم فى التعبير عن مكنون نفسه بالألفاظ الموحية والتراكيب البليغة ، وعلى أساس من ذلك كان جل كلام العرب شعرا ونثرا ، وأعجز القرآن الكريـم العرب ببلاغته ، وهذا كله لا يعنى أن تكون اللغة كلها خيـالا بعيدا عن الواقع ، أو أنها لا تخاطب العقل من خلال الوجدان والشعور ، كما أنه لا تبرز قيمة اللغة وأهميتها فى الاقنـاع والتأثير الا اذا كانت قادرة على استثارة المشاعر وبعث الأحاسيس، وغالب الكلام العربى يقوم على ذلك ، وهذا هو رصيدنا فى عرض قضية الأثر الصوتى فى الوفاء بغرض المتكلم فى الصفحات التالية . وسيتضح من خلالها مدى تحمس ابن جنى الشديد لعلاقـة الصوت بمعناه علاقة لازمة .

٤ ـ قد ترتبط دلالة الصوت على مصدره بناحية نفسية معينة كالكره والنفور والسخرية مثل : البغض ، والغضب والنفور والغضور ... وغير ذلك .

٥ ـ طول الكلمة أو قصرها فى الأصوات قد يوحى فى اللغة بمعنى خاص كتضعيف عين الفعل للدلالة على كثرته كما فى (قطَع وقطَّع وكسَر وكسّر) ، وكما فى (جر وجرجر ، وثر وثرثر ، وخشن واخشوشن) ، وهذا ينطلق من قاعدة زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، ويدخل فى اطارها الحذف والزيادة فى بعض الألفاظ .

٦ ـ قد ترتبط حركات الكلمة بالدلالة على المقصود كدلالة الكسرة على المؤنث ، وياء التصغير التى هى أخت الكسرة على المصغر .

وفى النهاية نستطيع القول بأن العلاقة بين الصوت ومعناه لا ينبغى أن تقوم على المنطق الصارم دائما ، ولكن ينبغى أن ينظر فيها الى المشاعر والأحاسيس أكثر من الناحية المنطقية ، ولذلك وجدنا أن الشعراء والأدباء هم الذين يكثرون من الوقوف عند هذه الظاهرة ، فيؤثرون ألفاظا بعينها على سواها لارتباطها بمعان شعورية نفسية تجيش بها صدورهم وان كانت معتمدة على الخيال أكثر من اعتمادها على الحقيقة " ولا شك أن الاستعمال الأدبى للكلمة فى شعر أو نثر يوثق على توالى الأيام بين

الأصوات والمدلولات ، ولا سيما فى عبارات المشهورين من الأدباء التى قد تبلغ عند بعض الشعوب حد التقديس أو العبادة وتصبغ فيها الكلمات بصبغة معينة يستمسك بها الناقد ، ودارس الأدب ، وهكذا تمر الأيام ويصبح الناس وقد خيل اليهم أن هناك صلة عقلية بين الأصوات والمدلولات فى ألفاظ معينة .

أما اللغوى المحلل فيأبى تقدير الظواهر اللغوية الا فى ضوء أسسه العملية من بحث الأصوات والصيغ وتركيب الكلمات ويرفض تقدير اللغات على أساس ما ظهر فيها من آثار أدبية ، مراعيا جهده الفصل بين خصائص اللغة فى أصواتها وتراكيبها ، وبين ما دبج بها من نتاج فكرى حتى يكون حكمه على اللغة محضا غير مشوب بقدر الامكان بما يمكن أن يكون لآداب تلك اللغة من تأثير فى النفوس والقلوب " (١) .

يفهم من العرض السابق أنه ليست هناك علاقة مطردة بين الأصوات ومعانيها لما ورد فى الحديث السابق من أدلة تنقض هذه العلاقة ، ولكن مع ورود هذه الأدلة يمكن القول بأنها لا تنقض أساس هذه العلاقة مطلقا ، لأنها كلها قابلة للنقاش ، فهى وان كانت قد اعتمدت على قضية المشترك اللفظى والترادف والتطور المستمر للأصوات والمعانى ، لكن يمكن القول بأن اللغة كلها ليست مشتركا لفظيا ولا ألفاظا مترادفة ، وانما

---

(١) من أسرار اللغة / ١٤٩ — ١٥٠ ، د / ابراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية .

هما ظاهرتان لغويتان خاصتان ، ولا يعني عدم تحقق هذه المشاكلة بين الصوت ومعناه فيهما – ان ثبت اطراد ذلك – عدم تحققها في اللغة بصفة عامة ، كما أن موضوع التطور المستمر في اللغة وأصواتها لا ينقض القاعدة أيضا ؛ لأن المعول عليه هو أساس هذه اللغة كما نطق به أصحابها الأوائل . أما مسألة التطور فهذا شئ آخر طارئ على الأصول الأولى ، والمعتبرة بالأصل كما ورد على لسان أصحابه . أما قضية ربط موضوع المشاكلة بين الألفاظ ومعانيها بالجانب الأدبي في اللغة دون الجانب المنطقي الموضوعي ، فهذا لا يضر القضية في شئ ؛ لأن اللغة العربية بطبيعتها لغة شاعرة تخاطب الوجدان والشعور من خلال مهارة الكاتب أو المتكلم في التعبير عن مكنون نفسه بالألفاظ الموحية والتراكيب البليغة ، وعلى أساس من ذلك كان جل كلام العرب شعرا ونثرا ، وأعجز القرآن الكريم العرب ببلاغته ، وهذا كله لا يعني أن تكون اللغة كلها خيالا بعيدا عن الواقع ، أو أنها لا تخاطب العقل من خلال الوجدان والشعور ، كما أنه لا تبرز قيمة اللغة وأهميتها في الاقناع والتأثير الا اذا كانت قادرة على استثارة المشاعر وبعث الأحاسيس وغالب الكلام العربي يقوم على ذلك ، وهذا هو رصيدنا في عرض قضية الأثر الصوتي في الوفاء بغرض المتكلم في الصفحات التالية ، وسيتضح من خلالها مدى تحمس ابن جني الشديد لعلاقة الصوت بمعناه علاقة لازمة .

أوجه المشاكلة بين الألفاظ والمعانى

يحسن فى البداية أن نورد هنا مقتطفات مما عرضه واحد من أبرز علماء اللغة القدامى ، هو (ابن جنى) حول هذه القضية ليكون ذلك منطلقا لنا فى الحديث عن هذا الجانب التطبيقى .

يقول ابن جنى : " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث ، فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ، فيعدلونها ، ويحتذونها عليها ، وذلك أكثر مما نقدره ، وأضعاف ما نستشعره ، من ذلك قولهم : خضم ، وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ ، والقثاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم للصلب اليابس ، نحو قضمت الدابة شعيرها ، ونحو ذلك ، وفى الخبر : " قد يدرك الخضم بالقضم " أى قد يدرك الرخاء بالشدة واللين بالشظف ... فاختاروا الخاء لرخاوتها والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث "(1) .

بهذا الحديث أسس ابن جنى قضية الارتباط بين الصوت ومعناه ، وقد أكد ذلك فى مواضع أخرى كما سيتضح فيما بعد .

ونستطيع تصنيف هذه الظاهرة الصوتية على النحو الآتى :ـ

---

(١) الخصائص : ٢/١٥٨ ، ابن جنى ، تحقيق/محمد على النجار .

أ — مشاكلة الأصوات للمعانى فى الحروف :

أشار ابن جنى فى عبارته السابقة الى التفرقة فى المعنى بين قضم وخضم بأن القضم أكل اليابس الصلب ، كقضم الدابة شعيرها ونحوه ، بخلاف الخضم الذى يعنى أكل الرطب كالبطيخ والقثاء ونحوهما ، وقد أقام هذه التفرقة على الفرق بين الخاء والقاف ، لأنه هو الفرق الوحيد الصوتى الذى جعل المعنى يتغير من اليابس الى الرطب ، وقد علل لذلك ابن جنى بأن الخاء لرخاوتها كانت مناسبة للرطب ، وأما القاف فلصلابتها كانت مناسبة لليابس ، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث ، كما يقول .

أما ارتباط هذا التعليل بما سبق أن أوردناه فى أوصاف الحروف بأنه يتفق معه تماما ، اذ ان الخاء من الحروف الرخوة لا الشديدة التى جمعوها فى : أجدك قطبت ، وأما القاف فهى من الحروف الشديدة (الانفجارية) ، ولذلك وردت ضمن العبارة المذكورة التى جمعت هذه الحروف . وكان لاتحاد الحرفين الآخرين نصيب فى تلاقى المعنيين ، كما يظهر ذلك أيضا فيما نعرضه من أمثلة . ونورد فيما يلى مجموعة أخرى من الشواهد المعضدة لذلك :

القد ، والقط : فقد استعملوا الأولى للقطع الطولى والثانية للقطع العرضى ، ولا شك أن القطع العرضى أقوى

وأسرع من القطع الطولى ، والفرق بين اللفظين هو فى طبيعة صوت الدال وطبيعة صوت الطاء ، وان كان يجمع بين الصوتين بعض الصفات التى جعلت اللفظين يدوران حول معنى واحد ، بالاضافة الى اتحاد الحرفين الآخرين ، ومن أهم تلك الصفات أن كلا من الدال والطاء صوت انفجارى شديد يناسب عملية القطع ، لكن الطاء من أصوات الاستعلاء بخلاف الدال فهى من أصوات الاستفال ، وتدور عبارة ابن جنى فى التفرقة بين اللفظين حول هذا المعنى فى قوله : " وذلك أن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعا له من الدال ، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال المماطلة لما طال من الأثر ، وهو قطعه طولا (١) .

النضح ، والنضخ : يجمع اللفظين معا بروز الماء وخروجه من منبعه ، لكنه يكون على سبيل الرشح فى نضح ، وعلى سبيل الفوران فى نضخ ، وبذلك يتضح ضعف الرشح فى النضح لكن الفوران والشدة فى النضخ ، وهذا الاتفاق والاختلاف بين المعنيين راجع الى طبيعة الاتفاق والاختلاف بين طبيعة صوت الحاء وطبيعة صوت الخاء ، فهما يتفقان فى بعض الصفات كالمخرج ، لأن كلا منهما حلقى ، كما أن كلا منهما حرف مهموس ، لكن الخاء صوت من أصوات التفخيم والحاء صوت من أصوات الترقيق ، ولا شك أن التفخيم قوة للحرف تجعل النفس

---

(١) السابق / ١٥٨ .

يمتلئ به حين نطقه ، بخلاف الحاء ، ولذلك عبر القرآن الكريم عن غزارة الماء المندفع من العينين في الجنة بالنضخ دون النضح في قوله جل شأنه : (فيهما عينان نضاختان) ، وحول هذه التفرقة يقول ابن جني : " فجعلوا الحاء ـ لرقتها ـ للماء الضعيف ، والخاء ـ لغلظها ـ لما هو أقوى منه "(١) ، وهذا يتفق مع ما قلناه في التفخيم والترقيق بين الصوتين .

وفي مقام التفرقة بين صوتي السين والصاد أورد ابن جني مجموعة من الألفاظ نورد منها ما يلي :

الوسيلة والوصيلة : كل من اللفظين يدور حول الاتصال مع الفرق الدقيق بين طبيعته في كل منهما ، أما دوران اللفظين حول معنى واحد فيرجع إلى الاتفاق في أصوات الكلمة مع التقارب بين الصوتين المختلفين وهما السين والصاد ، أما وجه التقارب فلأن كلا منهما صوت مهموس رخو ، لكن السين صوت انفتاح واستفال وترقيق ، بخلاف الصاد فهي صوت اطباق واستعلاء وتفخيم ، وهذه صفات قوة لها ، بخلاف الصفات الثلاث السابقة للسين فهي صفات ضعف ، ولذلك كانت الوصيلة أقوى في الوصل من الوسيلة .

أما جهة القوة فيقول عنها ابن جني : " والصاد ـ كما ترى ـ أقوى صوتا من السين لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة

---

(١) السابق .

أقوى معنى من الوسيلة ، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة ، بل الصلة أصلها من اتصال الشئ بالشئ ومماسته له ، وكونه فى أكثر الأحوال بعضا له ، كاتصال الأعضاء بالانسان ، وهى أبعاضه ، ونحو ذلك ، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءا أو كالجزء من المتوسل اليه ، وهذا واضح ، فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى ، والسين لضعفها للمعنى الأضعف »(١) .

صعد ، وسعد : يدور معنى اللفظين حول العلو والارتفاع ، وقد علمنا — منذ قليل — جهة الالتقاء والافتراق بين الصوتين ، الأمر الذى يتضح منه أن الصاد أقوى من السين ولذلك " جعلوا الصاد — لأنها أقوى — لما فيه أثر مشاهد يرى ، وهو الصعود فى الجبل والحائط ، ونحو ذلك ، وجعلوا السين — لضعفها — لما لا يظهر ، ولا يشاهد حسا ، الا أنه مع ذلك فيه صعود الجد ، لا صعود الجسم ، ألا تراهم يقولون : هو سعيد الجد ، وهو على الجد ، وقد ارتفع أمره ، وعلا قدره ، فجعلوا الصاد لقوتها مع ما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة ، وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس وان لم تره العين ، والدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية »(٢) .

---

(١) المرجع السابق ص: ١٦٠ .
(٢) المرجع السابق ص: ١٦١ .

السُّد والصُّد : يجمع اللفظين معا معنى المنع ، لكنه أقوى في الصد عنه في السد لقوة صوت الصاد عن صوت السين " فالسُّد دون الصُّد ؛ لأن السُّد للباب يسد والمنظرة ونحوها ، والصُّد جانب الجبل والوادى ، والشعب وهذا أقوى من السد الذى قد يكون لثقب الكوز ورأس القارورة ونحو ذلك ، فجعلوا الصاد لقوتها للأقوى ، والسين لضعفها للأضعف "(١) .

القسْم والقصْم : وعلى هذا النحو كانت التفرقة بين اللفظين راجعة للفرق بين صوتى الحرفين ، " فالقصم أقوى فعلا من القسم ؛ لأن القصم يكون معه الدق ، وقد يقسم بين الشيئين فلا ينكأ أحدهما ، فلذلك خصت بالأقوى الصاد ، وبالأضعف السين "(٢) .

قطَر وقدَر وقتَر : يقيم ابن جنى الفرق بين هذه الألفاظ الثلاثة على الفرق بين أصوات الطاء والدال والتاء ، فلما كانت الطاء صوتا عاليا واضحا ، والتاء صوتا مستفلا خافيا كان قطر الشئ بمعنى جانبه الظاهر منه بخلاف قتره ، فهو جانبه المقابل له ، ومن ذلك قطر الاناء الماء ، أى أسقطه من صفحته الخارجة الظاهرة وهى قطره ، وأما الدال فلما لم يكن لها صعود الطاء ولا نزول التاء فكانت واسطة بينهما عبر بها عن معظم الأمر وجماعة فى لفظ القدر ، فقيل : قدر الشئ لجماعه "(٣) .

---

(١) السابق ص : ١٦١ .　　　(٢) السابق .
(٣) السابق ص : ١٦٢ .

ب — مشاكلة الترتيب في الصوت للحدث :

* شد الحبل ونحوه : سبق أن عرفنا في صفات الحروف أن الشين صوت يدل على التفشي ، أي انتشار الصوت في الفم والانتشار يعني الضعف ، ولذلك بدئ بصوت الشين في شد الحبل ؛ لأن الشد في أوله يكون ضعيفا ، ثم ثنى بالدال المشددة للدلالة على القوة ؛ لأن شد الحبل يتحول من الضعف في البداية الى القوة بعدها ، ومما ضاعف من هذه القوة تضعيف الدال كما ذكرنا .

وحول هذا المعنى يقول ابن جنى : " فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه احكام الشد والجذب .... فأما الشدة في الأمر فانها مستعارة من شد الحبل ونحوه لضرب من الاتساع والمبالغة على حد ما نقول فيما يشبه بغيره لتقوية أمره المراد منه " .

* جر الشئ يجره : من المعروف مما سبق أن الجيم حرف شديد (انفجاري) وأما الراء فهي حرف تكرار ؛ لأنه يتكرر على طرف اللسان حين النطق به ، وهذا أمر خاص بالراء ، وقد قام معنى الجر على ما في صوت الجيم من خصوصية ، فلما كان " أول الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعا بدئ بالجيم ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر ، وكرروها مع ذلك في نفسه ،

وذلك أن الشئ اذا جر على الأرض في غالب الأمر اهتز عليها ، واضطرب صاعدا منها ، ونازلا اليها ، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق ، فكانت الراء — لما فيها من التكرير ولأنها أيضا قد كررت في نفسها في (جر) و (جررت) — أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها "(١) .

ويؤكد ابن جنى على مشاكلة الصوت لمعناه ، وأن هذا أمر مطرد في العربية ، فان ظهر ما يناقض هذه القاعدة فليس ذلك راجعا لخلل فيها ، وانما هو راجع الى عدم التفطن وانعام النظر فيما ظُن أنه غير مطرد ، أو يكون ذلك راجعا الى أن هناك أسرارا في اللغة لم تكشف عنها بعد ، ويؤكد على مشاكلة الصوت لمعناه " بما جاء عن العرب من تسميتهم الأشياء بأصواتها كالخازباز لصوته ، والبط لصوته والواق للصرد لصوته وغاق للغراب لصوته ، وقولهم : كالبحر يدعو هيقما وهيقما " في حكاية لصوت اضطراب البحر ، ومنه قولهم : حاحيت ، وعاعيت ، وهاهيت ، اذا قلت : حاء ، عاء ، هاء ، وقولهم : بسملت — وهيللت ، وحوقلت ، كل ذلك وأشباهه انما يرجع في اشتقاقه الى الأصوات ، والأمر أوسع "(٢) .

---

(١) السابق ص : ١٦٤ .
(٢) السابق بتصرف ص : ١٦٤ ، ١٦٥ .

جـ ـ مشاكلة التقارب بين الأصوات لتقارب المعاني :

قد يكون المقصود من المشاكلة بين الأصوات والمعاني الدلالة على التقارب بين المعنيين لتقارب الصوتين كما في :

* أزَّ وهزَّ : وقد سبقت الاشارة الى شئ من هذا ، ولذلك أورد ابن جنى طائفة من المعانى المتقاربة بين الألفاظ لتقارب الأصوات ، ومنها هذان اللفظان ، واستشهد لقوة الأز عن الهز بايثار القرآن الكريم للفظة الأولى دون الثانية ، فى قوله سبحانه : (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) ، ويجمع اللفظان معنى الهز ، لكنه شديد وقوى مع الهمزة دون الهاء ، لقوة الهمزة عن الهاء ، وان كانت هناك جهة التقاء بين المعنيين سوغت وقوع الهمزة موقع الهاء ، يقول ابن جنى " وهذا فى معنى تهزهم هزا ، والهمزة أخت الهاء فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين ، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أعظم فى النفوس من الهز ، لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك "(١) .

أما جهة الأخوة بين الهمزة والهاء ، فهى أن كلا منهما حرف حلقى ينطق من أقصى الحلق ، كما أنهما من أصوات الاستفال ، لكنهما يفترقان فى أن الهمزة صوت مجهور ، بينما

---

(١) السابق ص : ١٤٦ .

فالهاء صوت مهموس ، كما أن الهمزة صوت انفجاري ، بينما الهاء صوت رخو ، ومن هنا تتضح قوة الهمزة على الهاء ، ولذلك أوثرت الهمزة على الهاء في موقف يستدعي الدلالة على القوة في الآية الكريمة .

* ومن كثرة المعنى لكثرة الصوت : .

أننا نجد أن الفعل المضعف العين يدل على تكثير المعنى ليشاكل صوت النطق بالتضعيف تكثير المعنى ، وذلك كما في قولك : قطّع وكسّر وغلّق ، وفتّح " وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل" (١).

* ــ المشاكلة بين صيغة الصوت ومدلوله :

هذا ، وقد تكون كثرة المعنى ليست قائمة على التضعيف بل تكون قائمة على تكرار بعض الأصوات في الفعل للدلالة على تكرار الحدث بصورة نغمية منظمة كما في القهقهة ، والجمجمة والمقعقة ، فلما كان هناك ترجيع في الصوت تبعه ترجيع في المعنى أيضا ، وهذا يكون في الأفعال الرباعية التي كان ثالثها ورابعها كأولها وثانيها ، ولذلك استعان البحتري بصوت من هذا النوع ليدل به على مراده في وصفه لذئب بصوت بأسنان صلبة معوجة تحمل في خطوطها الهلاك ، وذلك في قوله :

---

(١) السابق ص : ١٥٥ .

يقضقض عصلا في أسرتها الردى
كقضقضة المقرور أرعده البرد[١]

وحول هذه المشاكلة يقول ابن جني : "اعلم أن هذا موضع شريف ، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته"

قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا ، فقالوا : صر ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا : صرصر ، وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان : أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو : النقزان والغليان والغثيان فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال ، ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ، ومنهاج ما مثلاه ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرار نحو : الزعزعة ، والقلقلة ، والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة ، ووجدت أيضا (الفَعَلى) في المصادر والصفات ، انما تأتي للسرعة نحو : البشكى ، والجمزى ... فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر ، أعني باب القلقلة والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها[٢] .

---

(١) انظر : موسيقى الشعر / ٢٦ دكتور/ شاكر عبد الـ... مكتبة الخانجي .
(٢) الخصائص : ٢/ ١٥٢ ، ١٥٣ .

و — اشتقاق اللفظ من نفس الصوت القائم بمعناه :

وهذا يكون على جهة الحكاية ، وتصوير الأشياء والدلالة عليها بأصواتها ، ومن هذا قول العرب فى حكاية صوت مصراعى الباب اذا أغلق جَلَنْبَلِق ، وقول الشاعر :

جرت الخيل فقالت حَبَطَقْطَقْ

وهذا غير الأصوات التى يعبرون بها عن الأحداث وان كانت مشتقة منها ، وقد أشرنا الى بعضها من قبل ومنها أيضا المطمطة للأصوات المتتابعة فى الحرب ، والقهقهة فى الضحك ، وأمثال ذلك كثير ،(١) .

ولا شك أن كل هذه الصور التى أوردناها لمشاكلة الصوت لمعناه تبرز دقة اللغة وموسيقيتها فى أدائها للمعنى المراد .

وحتى ندعم قضية علاقة الصوت بمعناه نورد فيما يلى مجموعة من النصوص المستقاة من كتب التراث (وهى لابن جنى فى الخصائص ٣/٦٤ ٢ ، وابن الأثير فى المثل السائر ٢/ ٢٤١ ، والعلوى فى الطراز ٢/ ٦٢ ١) تدور حول قوة اللفظ لقوة المعنى ، وقد

(١) انظر الخصائص لابن جنى ، وتاريخ آداب العرب للرافعى ، وموسيقى الشعر للدكتور/ صابر عبد الدايم .

أوردناها على هذا الترتيب الزمني ، وسنورد بعد ذلك مجموعة من الشواهد القرآنية حول مشاكلة الألفاظ للمعاني لنبين شيئا من أسرار الاعجاز القرآني في هذه المشاكلة .

* * *

باب فى قوة اللفظ لقوة المعنى

(١)

ابن جنى

هذا فصل من العربية حسن ، منه قولهم: خشن واخشوشن فمعنى خشن دون معنى اخشوشن ، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو ، ومنه قول عمر رضى الله عنه : اخشوشنوا وتمعددوا أى اصلبوا وتناهوا فى الخُشنة ، وكذلك قولهم: أعشب المكان ، فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا : اعشوشب ، ومثله حلا واحلولى ، وخلق واخلولق ، وغدن واغدودن ، ومثله باب فعل وافتعل ، نحو قدر واقتدر ، فاقتدر أقوى معنى من قولهم: قدر ، كذلك قال أبو العباس : هو محض القياس ، قال الله سبحانه: (أخذ عزيز مقتدر) ، فمقتدر هنا أوفق من قادر ، من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ ، وعليه — عندى — قول الله — عز وجل — : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) ، وتأويل ذلك أن كسب الحسنة بالاضافة الى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر ، وذلك لقوله — عز اسمه — : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) ، أفلا ترى أن الحسنة تصغر باضافتها الى جزائها ، صغر الواحد الى العشرة ، ولما كان جزاء السيئة انما هو بمثلها ، لم تحتقر الى الجزاء عنها ، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ولذلك قال — تبارك وتعالى — : (تكاد السموات يتفطرن منه

وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) ، فاذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه الى هذه الغاية البعيدة المترامية ، عظم قدرها ، وفخم لفظ العبارة عنها فقيل : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فزيد في لفظ فعل السيئة ، وانتقص من لفظ فعل الحسنة ، لما ذكرنا ، ومثله سواء بيت الكتاب :

أنا اقتسمنا خطتينا بيننا ∴ فحملت برة واحتملت فجار

فعبر عن البر بالحمل ، وعن للفجرة بالاحتمال ، و(هذا) هو ما قلناه في قوله — عز اسمه — : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) ، لا فرق بينهما ، وذاكرت بهذا الموضع بعض أشياخنا من المتكلمين فسر به ، وحسن في نفسه ،

ومن ذلك أيضا قولهم : رجل جميل ، ووضئ ، فاذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا : وُضّاء ، وجُمّال ، فزادوا في اللفظ : (هذه الزيادة) لزيادة معناه ، قال :

والمرء يلحقه بفتيان الندى ∴ خلق الكريم وليس بالوُضّاء

وقال : * منه صفيحة وجه غير جُمّال *

وكذلك حسن وحُسّان ، قال :

دار الفتاة التي كنا نقول لها

يا ظبية عُطْلا حُسّانة الجيد

وكأن أصل هذا انما هو لتضعيف العين في نحو المثال ، نحو : قطّع وكسّر وبابهما ، وانما جعلنا هذا هو الأصل لأنه

مطرد فى بابه أشد من اطراد باب الصفة ، وذلك نحو قولك : قطع وقطَّع ، وقام الفرس وقوَّمت الخيل ، ومات البعير وموَّتت الابل ، ولأن العين قد تضعف فى الاسم الذى ليس بوصف ، نحو : قُبَّر وتُمَّر وحُمَّر ، فدل ذلك على سعة زيادة العين ، فأما قولهم : خطَّاف وان كان اسما ، فانه لاحق بالصفة فى افادة معنى الكثرة ، ألا تراه موضوعا لكثرة الاختطاف به ، وكذلك سكين ، انما هو موضوع لكثرة تسكين الذابح به ، وكذلك البزار والعطار والقصار ونحو ذلك ، انما هى لكثرة تعاطى هذه الأشياء ، وان لم تكن مأخوذة من الفعل ، وكذلك النُّسَّاف لهذا الطائر ، كأنه قيل له ذلك ، لكثرة نسفه بجناحيه ، وكذلك الخُضَّارَى للطائر أيضا ، كأنه قيل له ذلك لكثرة خضرته ، والحوَّارى لقوة حوره وهو بياضه ، وكذلك الزُّمَّل والزُّمَّيْل والزُّمَّال ، انما كررت عينه لقوة حاجته الى أن يكون تابعا وزميلا ، وهو باب منقاد .

ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله وذلك فعال فى معنى فعيل ، نحو طُوال ، فهو أبلغ (معنى من) طويل ، وعُراض ، فانه أبلغ (معنى من) عريض ، وكذلك خُفاف من خفيف ، وقُلال من قليل ، وسُراع من سريع ، ففُعال — لعمرى — وان كانت أخت فعيل فى باب الصفة ، فان فعيلا أخص بالباب من فُعال ، ألا تراه أشد انقيادا منه ، تقول : جميل ، ولا تقول : جُمال ، وبطئ ولا تقول : بُطاء ، وشديد ولا تقول :

شُداد (ولحم غريض ولا يقال : غُراض) ، فلما كانت فعيل هي الباب المطرد وأريدت المبالغة ، عدلت الى فُعال ، فضارعت فُعال بذلك فُعّالا ، والمعنى الجامع بينهما خروج كل واحد منهما عن أصله ، أما فُعّال فبالزيادة ، وأما فُعَال فبالانحراف به عن فعيل .

* * *

(٢) ابن الأثير

النوع الثاني عشر

في قوة اللفظ لقوة المعنى

هذا النوع قد ذكره أبو الفتح ابن جني في كتاب : الخصائص الا أنه لم يورده كما أوردته أنا ، ولا نبه على ما نبهت عليه من النكت التي تضمنته وهذا يظهر بالوقوف على كلامي وكلامه .

فأقول : اعلم أن اللفظ اذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل الى وزن آخر أكثر منه فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ، لأن الألفاظ أدلة على المعاني ، وأمثلة للابانة عنها ، فاذا زيد في الالفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني ، وهذا لا نزاع فيه لبيانه .

وهذا النوع لا يستعمل الا في مقام المبالغة .

فمن ذلك قولهم : خشن ، واخشوشن ، فمعنى : خشن : دون معنى : أخشوشن ، لما فيه من تكرير العين ، وزيادة الواو ،

نحو : فعل وافعوعل . وكذلك قولهم : اعشب المكان ، فاذا رأوا كثرة العشب قالوا : (اعشوشب) .

ومما ينتظم بهذا السلك : قدر ، واقتدر ، فمعنى : اقتدر : أقوى من معنى : قدر ، قال الله تعالى : (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) ، فمقتدر ها هنا أبلغ من قادر ، وانما عدل اليه للدلالة على التفخيم للأمر ، وشدة الأخذ الذى لا يصدر الا عن قوة الغضب ، أو للدلالة على بسطة القدرة ، فان المقتدر أبلغ فى البسطة من القادر ، وذاك أن (مقتدر) اسم فاعل من : اقتدر ، و (قادر) اسم فاعل من (قدر) ، ولا شك أن (افتعل) أبلغ من (فعل) . وعلى هذا ورد قول أبى نواس :

فعفوت عنى عفو مقتدر
حلت له نقم فألغاها

أى : عفوت عنى عفو قادر متمكن القدرة ، لا يرده شئ عن امضاء قدرته . وأمثال هذا كثيرة .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام : (فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا) ، فان (غفارا) أبلغ فى المغفرة من (غافر) ، لأن (فعّالا) يدل على كثرة صدور الفعل ، و (فاعلا) لا يدل على الكثرة .

وعليه ورد قوله تعالى : (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ، فالتواب هو الذى تتكرر منه التوبة مرة على مرة ،

وهو (فَعّال) ، وذلك أبلغ من التائب الذى هو (فاعل) فالتائب اسم فاعل من تاب يتوب ، فهو تائب ، أى صدرت منه التوبة مرة واحدة ، فاذا قيل (تواب) كان صدور التوبة منه مرارا كثيرة .

وهذا وما يجرى مجراه انما يعمد اليه لضرب من التوكيد ولا يوجد ذلك الا فيما فيه معنى الفعلية ، كاسم الفاعل والمفعول ، وكالفعل نفسه ، نحو قوله تعالى : (فكبكبوا فيها هم والغاوون) ، فان معنى : كبكبوا من الكب ، وهو القلب الا أنه مكرر المعنى ، وانما استعمل فى الآية دلالة على شدة العقاب ، لأنه موضع يقتضى ذلك .

ولربما نظر بعض الجهال فى هذا ، فقاس عليه زيادة التصغير ، وقال : انها زيادة ، ولكنها زيادة نقص ، لأنه يزاد فى اللفظ حرف ، كقولهم فى الثلاثى فى رجل : (رجيل) وفى الرباعى فى قنديل : (قنيديل) ، فالزيادة وردت ههنا فنقصت من معنى هاتين اللفظتين .

وهذا ليس من الباب الذى نحن بصدد ذكره ، لأنه عار عن معنى الفعلية ، والزيادة فى الألفاظ لا توجب زيادة فى المعانى الا اذا تضمنت معنى الفعلية ، لأن الأسماء التى لا معنى للفعل فيها اذا زيدت استحال معناها .

ألا ترى أنا لو نقلنا لفظه (عذب) — وهى ثلاثية — الى الرباعى ، فقلنا (عَذْيَب) على وزن (جعفر) لاستحال معناها ، ولم يكن لها معنى .

وكذلك لو نقلنا لفظة (عسجد) وهي رباعية الى الخماسي فقلنا : (عَسّجَدِد) على وزن (جحمرش) لاستحال معناها .

وهذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية ، كقادر ومقتدر ، فان (قادر) اسم فاعل (قدر) وهو ثلاثي ، و(مقتدر) اسم فاعل (اقتدر) وهو رباعي ، فلذلك كان معنى القدرة في اقتدر أشد من معنى القدرة في قدر ، وهذا لا نزاع فيه .

وهذا الباب بجملته لا يقصد به الا المبالغة في ايراد المعاني وقد يستعمل في مقام المبالغة ، فينعكس المعنى فيه الى ضده ، كما جاء لأبي كرام التميمي من شعراء الحماسة ، وهو قوله :

لله تيم أي رمح طراد
لاقى الحمام وأي نصل جلاد
ومِحَشّ حربٍ مُقْدِمٍ مُتَعَرِّضٍ
للموت غير مُكَذِّبٍ حَيَّادِ

فلفظة (حياد) قد وردت ههنا ، وانما أوردها هذا الشاعر وقصد بها المبالغة في وصف شجاعة هذا الرجل ، فانعكس عليه المقصد الذي قصده ، لأن (حيادا) من (حيد) فهو حياد ، أي وجد منه الحيدودة مرارا ، كما يقال : قتل ، فهو (قتّال) أي وجد منه القتل مرارا ، واذا كان هذا الرجل غير حياد كان حائدا ، أي وجدت منه الحيدودة مرة واحدة ، واذا وجدت

منه مسسسرة كان ذلك جبنا ، ولم يكن شجاعة ، والأولى أن كان قال : غير مكذب حائد .

وينبغي أن يعلم أنه اذا وردت لفظة من الألفاظ ويجوز حملها على التضعيف الذى هو طريق المبالغة ، وحملها على غيره ، أن ينظر فيها ، فإن اقتضى حملها على المبالغة فهو الوجه .

فمن ذلك قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها :

* منى النفس فى أسماء لو تستطيعها *

وهى قصيدة مدح بها الخليفة المتوكل — وذكر فيها حديث الصلح بين بنى تغلب ، فمما جاء فيها قوله :

رفعت بضبعىْ تغلبِ ابنة وائل
وقد يئست أن يستقل صريعها

فكنت أمين الله مولى حياتها
ومولاك فتح يوم ذاك شفيعها

تألفتهم من بعد ما شرّدتْ بهم
حفائظ أخلاق بطئٍ رجوعها

فأبصر غاويها المحجة فاهتدى
واقصر غاليها ودانى شُسوعها

فقوله (تألفتهم من بعد ما شردت بهم) يجوز أن تخفف لفظة (شردت) ويجوز أن تثقل ، والتثقيل هو الوجه ؛ لأنه

فى مقام الاصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا ، وتباينت قلوبهم وآراؤهم .

وكل ما يجئ من الألفاظ على هذا النحو فينبغى أن يجرى هذا المجرى .

وها هنا نكتة لابد من التنبيه عليها ، وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم الا فى نقل صيغة الى أكثر منها كنقل الثلاثى الى الرباعى ، والا فاذا كانت صيغة الرباعى مثلا موضوعة لمعنى فانه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثى الى مثل تلك الصيغة .

ألا ترى أنه اذا قيل فى الثلاثى (قتل) ثم نقل الى الرباعى فقيل (قتّل) بالتشديد فان الفائدة من هذا هى التكثير ، أى أن القتل وجد منه كثيرا ، وهذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تكن دالة على التكثير كقوله تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) ، فان (كلم) على وزن (فعّل) ولم يرد به التكثير ، بل أريد به أنه خاطبه ، سواء كان خطأبه اياه طويلا أو قصيرا ، قليلا أو كثيرا ، وهذه اللفظة رباعية ، وليس لها ثلاثى نقلت عنه الى الرباعى ، لكن قد وردت بعينها ، ولها ثلاثى ورباعى ، فكان الرباعى أكثر وأقوى فيما دل عليه من المعنى ، وذلك أن تكون (كلم) من الجرح : أى جرح ، ولها ثلاثى وهو (كلم) مخففا ، أى جرح ، فاذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة ، واذا وردت مثقلة دلت على التكثير .

وكذلك ورد قوله تعالى : (ورتل القرآن ترتيلا) ، فان لفظة (رتل) على وزن لفظة (قتّل) ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة ، وانما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأني والتدبر ، وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثي لها ، حتى تنقل عنه الى الرباعي ، وانما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة .

وعلى هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى الا بالنقل من وزن الى وزن أعلى منه ، فاعرف ذلك .

ومن ها هنا شذ الصواب عمن شذ عنه في (عالم) و(عليم) فان جمهور علماء العربية يذهبون الى أن (عليما) أبلغ في معنى العلم من (عالم) وقد تأملت ذلك ، وأنعمت نظري فيه ، فحصل عندي شك في الذي ذهبوا اليه ، والذي أوجب ذلك الشك هو أن (عالما ، وعليما) على عدة واحدة ، اذ كل منهما أربعة أحرف ، وليس بينهما زيادة ينقل فيها الأدنى الى الأعلى .

والذي يوجبه النظر أن يكون الأمر على عكس ما ذكروه ، وذاك أن يكون (عالم) أبلغ من (عليم) ، وسببه أن عالما اسم فاعل من (علم) وهو متعد ، وأن عليما اسم فاعل من (عَلُم) الا أنه أشبه وزن الفعل القاصر نحو شَرُف فهو شريف ، وكرم فهو كريم ، وعظم فهو عظيم ، فهذا الوزن لا يكون الا في الفعل القاصر ، فلما أشبهه (عليم) انحط عن رتبة (عالم) الذي هو متعد

ألا ترى أن (فَعِل) ـ بفتح الفاء وكسر العين ـ يكون متعديا نحو علم وحمد ، ويكون قاصرا غير متعد ، نحو : غَضِب وصَبِح ، وأما (فَعُل) ـ بفتح الفاء وضم العين ـ فانه لا يكون الا قاصرا غير متعد ، ولما كان (فَعِل) ـ بفتح الفاء وكسر العين ـ مترددا بين المتعدى والقاصر ، وكان (فَعُل) ـ بفتح الفاء وضم العين ـ قاصرا غير متعد صار القاصر أضعف مما يتردد بين المتعدى والقاصر ، وحيث كان الأمر كذلك وأشبه وزن المتعدى وزن القاصر حط ذلك من درجته ، وجعله فى الرتبة دون المتعدى الذى ليس بقاصر .

هذا هو الذى أوجب لى التشكيك فيما ذهب اليه غيرى من علماء العربية ، ولربما كان ما ذهبوا اليه لأمر خفى عنى ، ولم أطلع عليه .

* * *

(٣) العلـــــوى

القانون الثالث
فى بيان قوة اللفظ لقوة المعـــنى

اعلم أن هذا الباب له حظ وافر من علوم المعانى ، ولـــه فيها قدم راسخة ، وقد ذكره ابن جنى فى كتاب " الخصائــص" وأورده ابن الأثير فى كتابه " المثل السائر " ، وما ذاك الا لعلمهما بعلو مكانه فى أبواب المعانى ، فنقول : قوة اللفظ لأجل قـــوة المعنى ، انما تكون بنقل اللفظ من صيغة الى صيغة أكثر منهـــا حروفا ، فلأجل ذلك يقوى المعنى لأجل زيادة اللفظ ، والا لكانت زيادة الحروف لغوا لا فائدة وراءها ، وذلك يكون فى الاسماء والأفعال ، والحروف ، فهذه ثلاثة أمثلة نذكر ما يتعلـــــق بكل واحد منها على حياله .

المثـــال الأول

فى الأسماء وهذا كقوله تعالى : (الحى القيوم) فانه أبلـــغ من قائم ، وقوله تعالى : (علام الغيوب) فانه أبلغ من عالـــــم وقوله تعالى : (مقتدر) فانه أبلغ من قادر ، ونحو قوله تعالـى : (والله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فان فعَّالا أبلغ من فاعل ومتطهر ، أبلغ من طاهر ، لأن التواب هو الذى تتكرر منه التوبـة مرة بعد أخرى ، وهكذا المتطهر ، فانه الذى يكثر منه فعـــل الطهارة مرة بعد مرة ، وهكذا القول فيما كان مشتقا من الفعل

فان زيادة لفظه دالة على زيادة معناه ، قال أبو نواس :

فعفوت عن عفو مقتـــــــدر

جلت له نقـــم فألغاهـــــا

ولم يقل : قادر ، مبالغة في الأمر ، وهكذا حال الأوصاف الجارية على الله تعالى اذا عدل بها عن منهاج الاشتقاق على جهة المبالغة ، وحكى ابن الأثير عن جماهير النحاة أنهم يقولون ان (عليما) أبلغ من عالم ، واستضعف هذه المقالة ، وزعــــم أن الأمر على خلاف ذلك وأن عالما أبلغ من عليم، لأن عالمـــا متعد ، وعليم غير متعد ، فلهذا كان أبلغ لما ذكرناه ، فأمــــا عدة أحرفهما فهي ســـواء ، وهذا الذي ذكره فاسد ، فـــإن الدلالة على بلاغة (عليم) ليس من جهة عد الأحرف ولا من جهة التعدي واللزوم ، فيصح ما ذكره ، وانما حصلت المبالغـــــة فيه من جهة الاستعمال ، لأنهم لا يستعملونه الا في مواضع البلاغة ، بخلاف قولنا عالم ، فيبطل ما توهمه .

(المثال الثاني)

في الأفعال

وهذا كقوله تعالى : (فكبكبوا فيها) فانه مأخوذ من الكب وهو القلب ، ولكنه كرر الباء للمبالغة فيه ، ومن هذا قولــــه تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وهذا من لطف الله ورحمته ، فانه جعل الثواب على أدنى ملابســـة للطاعـــــة فلهذا أتى فيه بالثلاثي المجرد ، وجعل العقاب على مزاولـــة عظيمة للفعل ، وعلاج ، فلهذا خصه ببناء المبالغة بالزيـــادة

على الثلاثى ، ومن هذا قوله تعالى : (فسيكفيكهم الله) ولو قال : نكفاك اياهم لم يكن فيه بلاغة ، وهكذا قولهم : اخشوشن ففى خشن ، واعشوشب المكان ، اذا أعشب وكثر شجره ، وانما عــدل عن بنائه الثانى للمبالغة فى ذلك المعنى .

(المثال الثالــث)

فى الحــروف

وهو قليل الاستعمال ، وهذا كقولنا : سأفعل ، وســوف أفعل ، فان زمان (سوف) أوسع من زمان السين ، وما ذاك الا لأجل امتداد حروفها وهكذا فان التأكيد بان الشديدة آكــد من التأكيد بان المخففة ، ونحو (لكن) فانها مع التضعيــف آكد منها مع التخفيف ، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن المبالغــة فى الألفاظ انما تكون تبعا للبلاغة فى المعانى ، فلا جرم تكثرت الألفاظ لأجل ذلك .

* * *

كنوز من الاعجاز القرآني
في مشاكلة الألفاظ للمعاني

لا شك أن ايثار اللغة العربية لغة للقرآن الكريم دون سائر اللغات تشريف لهذه اللغة وللناطقين بها أيضا ، فضلا عما تنفرد به العربية من سمات وخصائص لا تتوفر في غيرها من اللغات ، ولا يتسع المقام هنا للافاضة فيها [1] ، ولكننا في هذا المقام سنركز الحديث عن خصيصة واحدة من هذه الخصائص وهي مشاكلة اللفظ لمعناه ، وسنعرض فيها على صورا من هذه المشاكلة في أفصح الكلام ، وهو القرآن الكريم ، وبالله التوفيق .

الصورة الأولى في بناء اللفظ :

لما كانت خفة الألفاظ في العربية غرضا أصيلا وردت أغلب ألفاظها ثلاثية ، تليها الألفاظ الرباعية ، ثم ما زاد عن ذلك وهذا يعني أنه كلما كانت الألفاظ خفيفة كثر دورانها في الاستعمال ، وكلما قلت هذه الخفة في الألفاظ قل في المقابل استعمالها [2] .

---

(١) انظر : مجلة المنهل السعودية : ٥ ١٣٥ ، ٦ ١٣ عدد / ٤٩٨ ، سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م (مقال بعنوان : أضواء على مكانة العربية) للمؤلف .

(٢) انظر : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي / ٧٨ ، والمثل السائر لابن الأثير ١ / ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

ومع تنوع هذا الأصل في بناء الألفاظ نجد ألفاظا طويلة وردت في أفصح الكلام وهو القرآن الكريم ، وكان طولها أساسا مهما من أسس فصاحتها لتتم به مشاكلة اللفظ لمعناه ، من ذلك (فسيكفيكهم الله) ((البقرة/١٣٧)) ، ولعل طول هذا اللفظ (فسيكفيكهم) يشير الى عظمة حجم هذه الكفاية لأنها من الله سبحانه ، ومن ذلك أيضا ما ورد على لسان نوح عليه السلام في قوله تعالى : (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) ((هود /٢٨)) ، فلما كان الالزام ثقيلا على النفس ناسب ذلك أن يكون في الكلمة نوع من الثقل بالطول ليشاكل اللفظ معناه ، ومنه أيضا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض) ((التوبة/٣٨)) ، ومن الواضح أن لفظ (اثاقلتم) اجتمع فيه ثقل النطق مع ثقل الطول ، فكان الثقل فيه أكثر مما سبقه ليتناسب الثقل اللفظي مع ثقل التباطؤ وعدم النفور في سبيل الله ، ومن عجيب مشاكلة اللفظ لمعناه أيضا أنك تجد هذه المشاكلة قد يراعى فيه التجاور بين الألفاظ ، بمعنى أن يكون في اللفظ نوع من الثقل يتناسب به مع نوع من الثقل في لفظ آخر في العبارة ، ومن ذلك أنك تجد أن نون (كأن) وردت ساكنة في جميع مواقعها في القرآن الكريم ما عدا موقعا واحدا وردت فيه ثقيلة بالتشديد ، وهو قوله تعالى : (كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا) ((لقمان / ٧)) فلما كانت (كأن) الثانية أقرب تجاورا لكلمة (وقر) التي معناها

ثقل السمع من (كأن) الأولى وردت الثانية مشددة النون لمناسبة معنى الوقر[١] .

وقد يراعى فى التجاور بين الألفاظ الغرابة كإيثار أغرب ألفاظ القسم لمجاورته لأغرب أخوات كان وهو (تفتأ) فى قوله تعالى : (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا ...) ((يوسف / ٨٥)) ويواكب هذه الغرابة أيضا غرابة (حرضا) المذكورة بعد ذلك فى الآية نفسها[٢] .

وقد تكون الغرابة فى اللفظ مشاكلة للغرابة فى المعنى ، فيؤثر اللفظ الغريب على مرادفه من أجل هذه المشاكلة ، كما فى قوله سبحانه : (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذًا قسمة ضيزى) ((النجم / ٢١، ٢٢)) فقد أوثر لفظ (ضيزى) مع غرابته على مرادفه وهو جائرة أو ظالمة مثلا لغرابة هذه القسمة ، حيث لم يكتفوا بأن جعلوا لله ولدا حتى جعلوا له أخس النوعين ، وهو الأنثى ، مع أنه سبحانه ليس له ولد فضلا عن أن يكون أنثى .

وهكذا كان بناء اللفظ على الطول أو على الثقل أو على الغرابة مشاكلا لمعناه ، أو لمعنى لفظ آخر مجاور له فى العبارة على النحو السابق .

---

(١) انظر : روح المعانى للألوسى ٢١/ ٨٠ مكتبة دار التراث .
(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى : ٣/ ٣٧٨ — المكتبة المصرية — بيروت لبنان .

الصورة الثانية : فى الحذف والزيادة :

من المعروف أن قضية الحذف فى العربية ليست مطلقة ، وانما يأتى الحذف فيها على مستوى الحرف أو الكلمة أو الجملة أو الجمل مقيدا بأمرين : أولهما : أن يكون هناك غرض لهذا الحذف ، وثانيهما : أن يكون هناك دليل على المحذوف ، ولهذا الحذف على هذا النحو شواهد عديدة فى كلام العرب لا يتسع المقام لذكر شئ منها هنا [1] ولكننا سنشير فى اطار مشاكلة اللفظ للمعنى فى الحذف الى شاهد واحد فى حذف الكلمة فى حديث نبوى شريف ، فقد نقل عن السيدة عائشة — رضى الله عنها — قولها : " كنت أغتسل أنا ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) من اناء واحد ، فما رأى منى ، ولا رأيت منه " ، والشاهد هنا فى حذف مفعول (رأى — رأيت) وهو العورة ، وقد علل البلاغيون لهذا الحذف باستقباح ذكر المفعول ، وقد حسن هذا الحذف أيضا مشاكلة اللفظ لمعناه ، فلما كانت العورة يجب سترها شرعا حسن حذفها لفظا ليشاكل الحذف اللفظى الستر الشرعى .

ونقصر حديثنا على بعض شواهد الحذف أو الزيادة فى القرآن الكريم فى اطار مشاكلة اللفظ للمعنى ؛ لأن هذه الظاهرة لم تنل حظها الكافى من التعليل بخلاف ظواهر الحذف الأخرى المشار اليها آنفا .

---

(١) انظر شواهد لذلك فى خصائص التراكيب ١١٣ وما بعدها ، د / محمد أبوموسى مكتبة وهبة بالقاهرة .

أما عن حذف حرف من بعض المفردات فقد لاحظنـــــا أن الكلمة أحيانا يحذف منها حرف على غير المألوف فيهـــا ؛ للإشارة الى عدم الألف فى معناها ، ومن ذلك حذف يـــاء (يسرى) فى قوله تعالى : (والليل اذا يســر) ((الفجر/٤)) مع أن الفعل ليس مجزوما ، ولعل هذا الحذف للإشارة الى عدم الف السرى من الليل ؛ لأن الليل لا يسرى ، وانما يسرى فيه ، وهذا ما أجاب به الأخفش عندما سئل عن علة هذا الحــذف ، وعلق عليه الألوسى بقوله : " أراد أنه لما عدل عن الظاهر فـــى المعنى ، وغُيِّر عما كان حقه معنى غير لفظه "(١) .

ومن عجيب حذف الياء واثباتها فى القرآن الكريم قوله تعالى: (فلا تسألن ما ليس لك به علم) ((هود /٤٦)) ، مع المقارنـــة بقوله تعالى : (فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكـــرا) ((الكهف / ٧٠)) فلما كان المسئول عنه فى الآية الأولــــى غيبا غير معلوم كان من المناسب غيبة الياء بالحذف فى (تسألن) ولما كان المسئول عنه فى الثانية أمورا مشاهدة كخرق السفينـــة وقتل الغلام واقامة الجدار كان من المناسب اثبات الياء (٢) .
وشبيه بهذا حذف الياء فى : (لئن أخرتن الى يوم القيامـــــة لأحتنكن ذريته الا قليلا) ((الاسراء / ٦٢)) واثباتها فــــى (لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحـــين)

---

(١) روح المعانى : ٣٠/١٢١ ، وانظر : حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ٨/٣٥٧ دار صادر بيروت .
(٢) انظر : البرهان : ١/٤٠٠ .

((المنافقون / ١٠)) لأن التأخير الأول تأخير العقاب والمؤاخذة وهو معنوى لا جسمى ، فناسبه غيبة الياء ، وأما التأخير الثانى فهو تأخير محسوس جسمى فناسب ثبوت الياء (١) .

وهكذا من يتتبع أسرار حذف حرف فى القرآن الكريم أو اثباته يجد أسرارا عجيبة فى اعجاز هذا الكتاب العزيز .

أما زيادة حرف فى كلمة ، فسنكتفى هنا بالحديث عن زيادة حرف فى كلمة مرة بالمقارنة مع عدم زيادته فى الكلمة نفسها فى السورة الواحدة ، أما الحرف فهو الألف ، وأما الكلمة فهى السبيل ، وأما السورة فهى الأحزاب ، فقد وردت هذه الكلمة دون زيادة فى قوله تعالى : (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) ((الأحزاب / ٤)) بينما وردت بزيادة الألف فى وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) ((سورة الأحزاب / ٦٧)) .

وحتى تمكن محاولة فهم شئ من السر فى عدم زيادة الألف فى الموقع الأول نورد الآية كاملة ، وهى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) .

---

(١) المرجع السابق .

يلاحظ أن هذه الآية الكريمة أوردت ثلاثة أمور خارجة عن النهج السوى المألوف فى طبائع الأمور ، ولذلك وردت كلها فى حيز النفى ، أما الأمر الأول فهو جعل قلبين فى جوف رجل واحد ، وأما الأمر الثانى فهو جعل الزوجة أما ، وأما الأمر الثالث : فهو جعل الدعى ابنا ، وقد تقدم الأمر الأول وان كان مسلم النفى ليقاس عليه الأمران الآخران ، ليصيرا فى خروجهما عن الفطرة السليمة والطبع المستقيم كالمستحيل الذى أسس عليه الأمر الأول ، وهو جعل قلبين فى جوف رجل واحد .

ولما كانت هذه الأمور الثلاثة خارجة عن النمط المألوف والمنهج السوى كان من المناسب أن تأتى فاصلة الآية الكريمة ، وهى كلمة (السبيل) على طبيعتها المألوفة فى الكتابة دون زيادة أو نقص للاشارة الى أنه سبحانه يهدى الى السبيل المستقيم الذى لا يقبل زيادة ولا نقصا ولا خروجا عن المألوف ولا شذوذا ولأن فى ذلك رمزا الى أن الأمور الثلاثة السابقة أمور شاذة خارجة عن النهج المستقيم الذى يهدى اليه الحق سبحانه .

أما زيادة الألف فى (السبيلا) فقد وردت فى اطار قوله تعالى : (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها لا يجدون وليا ولا نصيرا . يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) ((الأحزاب / ٦٤ـ ٦٧)) .

ولما كانت نظرة الكفار الى هذا السبيل فى الدنيا تختلف عن

نظرتهم اليه في الآخرة ، حيث كانوا يعتبرونه في الدنيا سبيل ضلال وسحر وجنون وشعر وكهانة ، ثم تبين لهم بطلان ما كانوا عليه صار السبيل كأنه سبيل جديد غير مألوف لهم لاختلاف نظرتهم اليه بعد ما عاينوا العذاب حقا وصدقا ، ولذلك كان من المناسب زيادة هذه الألف لترمز الى المعنى الجديد والنظرة الجديدة لهذا السبيل ، ولا يخفى ما في مد الصوت بهذه الألف من تعظيم لهذا السبيل ، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كما هو مشهور .

وعلى نحو من ذلك يمكن التعليل لزيادة الألف في (الرسولا) في الآيات السابقة ؛ لتغير النظرة الى الرسول صاحب السبيل الحق ، ولتعظيم هذا الرسول أيضا ، ثم يأتي بعد ذلك تعليل آخر تابع لهذه التعليلات في زيادة الألف ، وهو مراعاة فواصل الآيات التي أتت كلها بالمد في هذه السورة ما عدا آية واحدة ، وهي التي ختمت بلفظ (السبيل) دون مد ، وقد أسلفنا القول في ذلك .

الصورة الثالثة : في العلاقة بين المعنى والصوت :

وقريب مما سبق أن ذكرناه في زيادة الألف في (السبيلا) والرسولا) والتي ترمز فيما نرى الى تعظيم هذا الرسول وذلك السبيل ، وكأنه رسول آخر غير السبيل والرسول اللذين عرفوهما في الدنيا .. ما ذكره بعض اللغويين عن الفرق بين النفى

بـ (لا) والنفي بـ (لن) حيث جعلوا النفي بالأولى ممتــــدا لامتداد الصوت في نطقها ، بينما جعلوا النفي في الثانيـــة منقطعا لانحباس الصوت في نطقها ، ولذلك نقل عن السهيلي قوله في ذلك: " ان امتداد الصوت وانطلاقه في هذا الحـــرف (لا) يشعر بتطاول زمن هذا النفي ، وأن النفي به حـــرى أن يكون للتأبيد ، بذلك بخلاف (لن) التي يدل احتبـــاس الصوت فيها على احتباس المعنى وعدم سريانه مع الزمن الممتـــد المتطاول البعيد "(١) .

كما يؤكد ابن القيم هذه التفرقة في المعنى لمشاكلـــة للتفرقة في اللفظ والصوت فيقول : " ولا يمتد معنى النفي فيهـــا (لن) كامتداد معنى النفي في حرف (لا) اذا قلت : زيـــد لا يقوم أبدا ، وقد قدمنا أن الألفاظ مشاكلة للمعاني التي هي أرواحها يتفــرس الفطن فيها حقيقة المعنى بطبعه وحســـه كما يتعرف الصادق الفراسة صفات الأرواح في الأجساد الـــتي هي قوالبها بفطنته ... " ، ثم نقل عن ابن جني قوله في هذا الصدد : " وتأمل حرف (لا) كيف تجدها لاما بعدها ألـــف يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس ، فآذن امتــــداد لفظها بامتداد معناها ، و(لن) بعكس ذلك ، فتأملـــــه فانه بديع "(٢) .

---

(١) قراءة في الأدب القديم / ٣٢د /محمد أبوموسى ،دار الفكـــر العربي .
(٢) بدائـــع الفوائد لابن القيم١ / ٩٥ ، ٩٦ ــ دار الفكر بيروت .

وإذا كانت العبارة السابقة تشير الى امتداد النفي بـ (لا) في المستقبل أكثر من النفي بـ (لن) لامتداد الصوت في (لا) فإن طبيعة امتداد الصوت هذه في (لا) جعلتها صالحة أيضا ليعم النفي بها جميع الأزمنة اذا دخلت على المضارع ، ما لم تقم قرينة معينة تحدد زمنا محددا ، وهذا ما ذهب اليه صاحب المصباح المنير[1] .

ومن شواهد ذلك قوله تعالى عن الأصنام: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) ((يونس / ١٨)) " أي ما ليس من شأنه الضر والنفع من الأصنام التي هي جمادات "[2] ، وكأن النفي بـ (لا) على هذا المستوى يشير الى طبيعة الأصنام التي لا تنفك عنهم في أي زمن من الأزمان .

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفهم شيئا من السر حول المفارقة في النفي بـ (لا) و (لن) في آيتين متشابهتين متحدثتان عن اليهود ، أولهما وردت في قوله تعالى : (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) ((البقرة / ٩٤ ، ٩٥)) ، وثانيتهما في قوله جل شأنه : (قل يأيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين * ولا يتمنونه

(١) انظر : ص : ٧٢ من المصباح المنير .
(٢) تفسير أبي السعود ٥ / ٢٧٣ دار احياء التراث العربي .

أبـدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) ((الجمعة/٦ ، ٧))

فلما كان الحديث السابق على النفى فى الآية الأولى مرتبطا بالدار الآخرة ، وهى مستقبلة قطعا كان من المناسب أن يكـون نفى تمنى الموت بأداة النفى المتمحضة للمستقبل ، وهى (لن) أما فى الآية الثانية فكان الحديث السابق عن زعم اليهـــود الولاية لله من دون الناس ، وهذا أمر لا يرتبط بزمن دون زمن ، لأنه طبيعة فى اليهود ، وإن كانت زائفة ، ولذلك كان الحديث عنهم بعنوان اليهودية المناسبة لهذه الطبيعة ، وهذا يناسبه نفى تمنيهم الموت الذى يتناقض مع ادعاء الولاية بأداة نفـــى يمتد النفى بها فى جميع الأزمنة ليتناسب مع طبيعتهم الـــتى تدعى الولاية لله من دون الناس ، وبهذا شاكل لفظ النفـــى معناه فى الآيتين السابقتين على نحو ما ذهبنا إليه ، والله الموفـــــق .

الصورة الرابعة : فى التقديم والتأخير :

الحديث عن التقديم والتأخير هنا لا يسير فى نفس المسار المشهور عند البلاغيين من أن تقديم ما حقه التأخير قد يكـــون للقصر أو الاهتمام ، وإنما يسلك مسارا آخر هو مسار مشاكلـــة اللفظ للمعنى الذى كان محورا تدور حوله صفحات هذا المقال ، وسنورد فيما يلى شاهدين لهذه الظاهرة من القرآن الكريم .

الشاهد الأول : فى تقديم موسى على هارون فى حديـــث

السحرة من آل فرعون الذين آمنوا برب موسى وهارون ، حيث حكى عنهم القرآن الكريم ذلك فى قولهم: (آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) ((الأعراف/ ١٢٢ ، والشعراء/ ٤٨))[1] ، مع ورود هارون مقدما على موسى عليهما السلام فى آية واحدة هى (آمنا برب هارون وموسى)((طه/ ٧٠)) .

أما تقديم موسى لفظا على هارون فى سائر الآيات التى ذكرا فيها معا فلتقدمه فضلا على هارون من حيث انه مصطفى بالتكليم ومن أولى العزم ولاعتبارات أخرى كثيرة منها الدعوة والرسالة والمعجزة ، فالتقدم فى اللفظ للتقدم فى الفضل .

أما تقديم هارون على موسى فى آية " طه " فقد ذكر له المفسرون تعليلات كثيرة لا يخلو معظمها من مناقشة[2] ، وما نرتضيه فى هذا المقام تعليل يقوم على مشاكلة اللفظ للمعنى فى هذا التقديم ، ذلك أن تفوق موسى عليه السلام على سحرة فرعون جعل السحرة يقلبون اعتقادهم الايمانى من الايمان بفرعون الى الايمان برب موسى وهارون عليهما السلام ، ولأن هول المفاجأة قلب هذا الاعتقاد من الوثوق الكامل بالنصر الى الهزيمة المطلقة ، فكان من المناسب لذلك قلب الحقيقة فى التعبير أيضا بالبدء بالمفضول وهو هارون عليه السلام والتثنية بالفاضل وهو موسى عليه السلام وفى هذا ما يشعر بقوة الايمان فى نفوسهم ،

(١) وكذلك تقديم موسى على هارون فى سائر المواقع القرآنية التى اقترنا بها .
(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازى ٢٢/ ٧٥ـ ٧٦ .

لأن ايمانهم برب المفضول يقتضى ايمانهم برب الفاضل من باب أولى ، وبذلك تناسب هذا التقديم شكلا وموضوعا مع واقعهم النفسى والايمانى ، والله أعلم(١) .

أما الشاهد الثانى للتقديم والتأخير فهو فى قوله تعالى : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ((الأحزاب / ٢٦)) حيث تقدم الفريق المقتول على الفريق المأسور فى الآية الكريمة ، وله توجيهات عديدة(٢) ، منها توجيه مشاكلة اللفظ للمعنى فى هذا التقديم والتأخير ؛ لأن الفريق المقتول لما كان هو المتقدم فى المعركة عادة ناسب ذلك تقديمه فى اللفظ ، وأما الفريق المأسور فهو المتأخر عادة أيضا فى المعركة ، ولذلك جاء تأخيره فى اللفظ ، وهذا من بدائع الاعجاز فى القرآن الكريم .

الصورة الخامسة : فى الخروج عن المألوف فى بناء الأسلوب :

هناك اعتبارات عامة وأسس معهودة فى بناء الأساليب العربية كمراعاة التناسب فى العطف بين الأسماء والأفعال ، والتناسب بين الضمائر التى ترد فى الأسلوب ، وكذلك تذكير

---

(١) انظر : الاعجاز البلاغى فى تراث أهل العلم / ١٩٩ ، ٢٠٠ د / محمد أبوموسى مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) انظر : من أسرار التعبير القرآنى فى سورة الأحزاب : ١٤٥ ، ١٤٦ د / محمد أبو موسى .

ما حقه أن يذكر وتأنيث ما حقه أن يؤنث ، وافراد ما حقـــه أن يفرد وتثنية ما حقه أن يثنى ... الى غير ذلك من الظواهـر اللغوية المألوفة فى بناء الأساليب ، لكننا نجد أن الأسلـوب أحيانا يأتى على غير المألوف فى بنائه لغرض من الأغراض ، وفـى الاطار العام الرحب الذى يتفق ورحابة هذه اللغة التـى وسعت كتاب الله لفظا وغاية كما يقول شاعر النيل .

وسنورد فيما يلى ظاهرتين من ظواهر خروج الأسلـوب عن النمط المعهود فى بنائه لمشاكلة القالب للقلب ، أو اللفـظ للمعنى ، وهذا لا ينفى بطبيعة الحال أن تكون هناك أسـرار أخرى لمثل هذه الظواهر التى تعد من شجاعة العربية ، لأنها مما تفوقت به العربية على سواها .

الظاهرة الأولى فى عطف الفعل على الاسم فى قوله تعالى : ((اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين)) ((آل عمران / ٤٥ ، ٤٦)) — وشاهدنا فى الآيتين الكريمتين فى عطف الفعل (ويكلم) علـى الاسم (وجيها) وقد ذهب المفسرون رحمهم الله فى تعليـل هذه الظاهرة مذاهب عديدة يغلب عليها الطابع النحـوى الذى لا يبرز فيه السر البلاغى الكامن وراء هذه الظاهـرة بوضوح [1] ، لكننا نستطيع القول بأن التكلم فى المهد لما كـان

---

(١) انظر التفسير الكبير مجلد ٤ جـ٧ ص٤٥ ، والبحر المحيـط لأبى حيان ٢ / ٤٦١ دار احياء التراث العربى .

صفة حادثة لعيسى عليه السلام ، وتتجدد له بعد ذلك في العمر المناسب كان من المناسب أن تأتي هذه الصفة فعلا ولأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد ، أما الوجاهة وكونه من المقربين فلما كانتا صفتين ثابتتين لعيسى عليه السلام لا تنفكان عنه كان من المناسب أن يأتيا بالاسم ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت والدوام كما هو متعالم مشهور في الدراسات البلاغية ، ولا يخفى أن (وجيها — من المقربين — يكلم) وإن كانت في المعيار النحوى أحوالا لكنها صفات معنوية في معيار المعنى .

أما مشاكلة اللفظ للمعنى في هذه الظاهرة فتقوم على أنه لما كان الكلام في المهد غير معهود وخارجا عن المألوف ناسبه المخالفة في عطف الفعل على الاسم ؛ ليكون عدم الالف في العطف مشاكلا لعدم الف الكلام في المهد ، وسبحان من هذا كلامه .

أما الظاهرة الثانية : فهي في تغيير نمط الأسلوب من الخطاب الى الغيبة والمعروف عند البلاغيين بالالتفات ، وذلك في قوله تعالى : (قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين) ((آل عمران / ٣٢)) ولو سار الأسلوب على النمط المألوف لقيل في غير القرآن : (فان توليتم) بضمير المخاطبين ليكون مناسبا لقوله : (أطيعوا ..) ويمكن أن يلتمس لهذه الظاهرة تعليل بلاغي معنوي بأن الخطاب ورد مع الأمر بطاعة الله والرسول لشرف هذه الطاعة ، وهذا الشرف

لا يناسب التولى الذى هو اعراض عن هذه الطاعة ، فكأنه سبحانه أعرض عن خطابهم ، وحكى لغيرهم سوء صنيعهم ، ويضاف الى ذلك أن التولى لما كان اعراضا كان من المناسب أن يغير نمط الأسلوب من الخطاب الى الغيبة ؛ لتكون الغيبة فى لفظ (تولوا) مشاكلة للاعراض عن طاعة الله والرسول ، وما الاعراض عن الطاعة ألا غيبة عنها ، والله أعلم .

وبعد ....

فهل نجد لهذه الصور — وغيرها كثير — فى مشاكلة اللفظ لمعناه مثيلا فى أية لغة أخرى من لغات العالم مهما بلغ مستواها ؟ لا شك أن الجواب بالنفى ، ولا شك أيضا أن هذه اللغة حافلة بالخصائص والسمات الأخرى التى جعلتها تتفوق على غيرها من اللغات ، كما رشحتها لتكون لغة لأفضل وآخر الكتب السماوية الذى أعجز كل لسان عربى عن توظيف هذه الخصائص وتلك السمات فى أسلوبه على النحو الذى وردت عليه فى هذا الكتاب المعجز ، وصدق الله العظيم : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ((الاسراء / ٨٨)) .

* * *

الفصل الرابـــــــع

أضواء علـى
الجانب الموسيقى فى اللغة العربيـــة

هل تعد اللغة العربية لغة موسيقية؟

للاجابة عن هذا السؤال نطرح هنا بعض المقومات والأسس التى ترتكز عليها موسيقية هذه اللغة ، وذلك من خلال عبارات لأحد أعلام العربية فى العصر الحديث :

* ان النفس البدوية طروب فى جوهرها ، وجميع مطامحها وانفعالاتها واندفاعاتها انما تتجلى فى تعبير موسيقى موزون ، هو بيت الشعر الذى سيكون مقياسه خطوة الجمل السريعة أو الطويلة ، وعلم العروض نفسه فى جوهره بدوى ، اذ إن صورة العبقرية البدوية قد انطبعت فى الشعر .

* هناك أمثلة كثيرة فى العربية تدل على التناسب والتقابل الموسيقى فى تركيب الكلمات وحروفها .

* للحرف فى اللغة العربية ايحاء خاص ، فهو ان لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه وإيحاء ، ويثير فى النفس جوا يهيئ لقبول المعنى ، ويوجه اليه ويوحى به .

* المجال فى العربية واسع لاستثمار الأدباء لهذه الخاصية الموسيقية فى أدبهم من أى لغة أخرى ، ويتفق فيها للفنان ما لا يتفق فى لغة غيرها من الموازنة بين جرس الكلمات ونغمة المفردات من جهة ، والأحداث المصورة والأفكار المعبر عنها .

* حروف العربية وأصواتها واسعة الأفق ، كاملة في مدرجها الصوتي ، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج ، متميزة المخارج والصفات ، ثابتة الأصوات عبر القرون ، يتوارثها جيل بعد جيل ، متنوعة الوظائف في بنية الكلمة ، لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى ، وتثبيت أصله وقراره وتنويع شكله وألوانه مع تناسق بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المقصودة .

* الظاهرة الموسيقية في اللغة العربية تعزى في أغلب عناصرها الى تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين ، وحين اعتمد القوم على سماعهم في الحكم على النص اللغوى ، فاكتسبت تلك الآذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة ، وأصبحت مرهفة ، تستريح الى كلام لحسن وقعه أو ايقاعه ، وتأبى آخر لنبوه ، أو لأنه كما يعبر أهل الموسيقى نشاز ، وكما تمرن الآذان في بيئة الأمية تمرن الألسنة أيضا ، فتنطلق من عقالها ، وقد اكتسبت صفة الذلاقة فلا تتعثر أو تزل أثناء النطق ، وتتعاون الأذن مع اللسان في مثل تلك البيئة على ايثار العناصر الموسيقية من اللغة ، ونفى العناصر النابية والتخلص منها ، ويؤدى هذا على مرور الأيام — بشرط أن تظل الأمة في نهضتها الاجتماعية والحضارية — الى انسجام في أصوات الكلام وحركاته ومقاطعه ، ويقترب بذلك الى نوع من الموسيقى أو الغناء .

((مجموعة من العبارات لبعض الأعلام عن الجانب الموسيقى للغة العربية)

وفيما يلى ابراز لبعض ملامح هذا الجانب بصـــــورة تطبيقيــــــة :

الايقاع الموسيقى للحـرف

لا شك أن " امتياز الحروف العربية بالدلالة على الحساسية الموسيقية حقيقة ملموسة لا محل فيها للمحال ، فالأذن العربية تميز بين الظاء والضاد ، وبين الذال والدال ، وبين الحـاء والخاء ، والهاء ولـبين الصاد والسين ، والشين ، وبـين الجيم والعين والغين ، وبين القاف والكاف والخاء ، وقلما يميز الناطقون باللغات الأخرى بين هذه الحروف "(١).

هذا ، ولقد علمنا مما سبق اختصاص الحروف بمخارج معينة كما علمنا أيضا الصفات الخاصة بهذه الحروف ، وعلى أساس من ذلك تكون قيمة الحرف فى النص الأدبى ، ويكون دوره فـى ابراز غرض الأديب ، وتجسيد أحاسيسه الدفية ومشاعـره الدفينة التى تستشف من البيئة التعبيرية لشعره ان كان شاعرا ، أو لنثره ان كان كاتبا ، وهو لا يفصح صراحة فى نصه عن قيمـة الحروف التى يستخدمها وخصائصها ، لكن الشاعر المطبـوع أو الكاتب الموهوب يستطيع أن يوظف اللغة بحروفها وكلماتها

(١) الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للعقاد ص : ١٢٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وتراكيبها توظيفا خاصا يكشف به لدى المتأمل خبايا نفســـه ، وما أضفاه على أسلوبه من أحاسيس ومشاعر هامة ، ويستطيـــع الحرف بموسيقاه القائمة على مخارجه وأوصافه وخصائصه أن يسهم فى ابراز التيار الشعـــورى النفسى فى مسار النص الأدبى .

يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى : " وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى ، وأن هذا الانفعال بطبيعتـــه انما هو سبب فى تنويع الصوت بما يخرجه فيه مـــدا أو غنة أو لينا أو شدة ، وبما يهيئ له من الحركات المختلفـة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصوت الى الايجاز والاجتماع أو الاطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المـــدى ونحوها مما هو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقى "[١] .

وللحرف فى اللغة العربية ايحاء خاص ، فهو ان لم يكـــن يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة ايحاء ، ويثير فــى النفس جوا يهيئ لقبول المعنى ، ويوجه اليه ، ويوحى به[٢] .

واذا كان الوزن والقافية فى الكلام الموزون المقفى يمثلان الموسيقى الخارجية للنص الشعرى تمثيلا واضحا مشهورا فـــان من الخطأ الكبير أن ننتهى معالم موسيقى النص الشعـــــرى عند هذه الموسيقى الواضحة ، لأن هناك موسيقى أخـــرى

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٢) كما ذكر زكى مبارك فى عبارته السابقة .

داخلية فى النص لا تقل أهمية عن الموسيقى الخارجية لأن لهـا دورا فعالا فى ايقاع النص وايحائه بالمعنى المقصود ، وجذب انتباه القارئ والسامع الى النص ان حسن توزيع وتوظيـف هذه الموسيقى الداخليـة ، وأشهر ما تتمثل فيه ما يلى :-

١ ــ الايقاع الباطن الذى تحسه ولا تراه ، تدركه ولا تستطيع أن تقبض عليه ، ويكمن تعادل النغم عن طريق مدات الحـروف حينا ، وعن طريق تكرارها حينا ، وعن طريق استعمال حـروف مهموسة أو مجهورة تتساوى مع الاطار الموسيقى العلم للقصيدة ، لكن على الشاعر ألا يقصر غايته على نغم قيثارته بدون أن يتجـاوب هذا النغم مع حركة النفس فى انفعالها الجياش وتعانـق الفكرة الشاعرية مع رنين القيثارة الموسيقية للقصيدة ، والا تحولت الايقاعات الداخلية الى نوع من الحلية الصوتية سرعان ما ينطفئ بريقها ، ويجمد صداها ، ويفر الشعر من بين يديك(١) .

٢ ــ القيم الصوتية فى النص الشعرى لا تعنى بالحركـات فقط ، ولا بالصوت فقط ، بل ان " للسكتة أيضا دلالتهـا ومعناها وايحاءاتها فى عالم الموسيقى ودنيا الشعر ، فالصمت نفسه انما يتحدد بالاضافة الى الكلمات ، والسكتة فى الموسيقى انما تأخذ معناها من أصناف ما يجاورها من ألحان ، فالصمت على هذا الاعتبار لحظة من لحظات الكلام ، والسكوت ليس بكما

---

(١) انظر : التجديد الموسيقى فى الشعر العربى /١٤ ، دكتور رجاء عيد ، وموسيقى الشعر /٢٧ ، د / صابر عبد الدايم .

بل رفضا للكلام ، فهو نوع منه "(١) .

٣ ــ وظاهرة السكوت التي تمد شكلا ايقاعيا تكون لحظــــة الانشاد الشعري ابتغاء التأثير الفني في السامعين وجذبهم .

٤ ــ وعلو الصوت أو انخفاضه أثناء الانشاد الشعــــري له تأثيره الخاص ، لذلك حالة ما يناسبها من الصوت علــــوا وانخفاضا ، جهرا أو همسا "(٢) ، وقد سبقت الاشارة الى ذلـــك عند الحديث عن التنغيم .

ومن الظواهر الموسيقية للحرف التي تبرز دوره مع الظواهـــر الفنية الأخرى ما نلاحظه في قصيدة أبي تمام المشهورة فــــي فتح عمورية ، والتي بدأها بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتـــــب
في حده الحد بين الجد واللعب

وفي هذه القصيدة نجد الشاعر قد اختار حرف الباء قافيـــة لها ، ويعني ذلك أن الترجيع الموسيقي لهذا الحرف سيستمر مع بدء القصيدة الى نهايتها ، فضلا عن تكراره في داخل أبيات القصيدة أيضا ، ولا يتأتى ذلك عند الشاعر المطبوع كأبي تمـــام من فراغ ، وانما يقوم على احساسه بالتناغم بين خصائص هـــذا الصوت والجو العام للقصيدة كلها ، ذلك أن جو القصيدة كمـــا

---

(١) ما الأدب جان بول سارتر نقلا عن عضوية الموسيقى في النص الشعري/٢٧ د /صابر عبد الدايم . (٢) موسيقى الشعر/٢٨

كما هو معروف مشحون بصدى المعركة الشرسة الشديدة التى كانت بين المعتصم والروم • ومما ضاعف من انفعال الشاعر بهذا الجو ما قام به المنجمون من تنبؤات وتكهنات حول مجريات الأمور فيها • ولذلك كانت شراسة المعركة وقوتها • والشحنات النفسية المتضاعفة حولها موحية للشاعر أن يختار لقافيتها حرفا شديدا انفجاريا مجهورا هو حرف الباء ليسهم هذا الصوت بهذه الخصائص فى ابراز جو المعركة وشدتها • ومن منطلق ما يتمتع به صوت الباء من خصائص حرص الشعراء على ابرازه ساكنا بقلقلته لتظهر فيه كل هذه الخصائص • ومن أجل ذلك عدت الباء من الحروف الألفية التى تتردد كثيرا فى الكلام • ففى كل ألف من الحروف تتردد ثلاثا وسبعين مرة • ومن هنا لم يأت اختياره رويا لقافية القصيدة ليسهم فى التجربة الشعرية التى مر بها الشاعر عشوائيا • كما أنه يوحى بما تدور حوله منذ البداية •

• وهناك ظواهر أخرى تؤكد القيمة الصوتية لموسيقى الحرف فى هذا البيت (مطلع القصيدة) حيث نرى الشاعر يكرر حروف الباء • هذا الصوت القوى الشديد المجهور أربع مرات فى البيت السابق • ثم يعمل على أن يشاغلنا به مرة أو أكثر من مرة فى كل بيت من أبيات القصيدة • فالشاعر يحاصرنا بهذا الحرف الذى لا يصبح حرفا • وانما يتحول الى مناخ موسيقى يتفق وطبيعة

التجربة ، بل انه ليثير بغزارته الخيال"[1] ، ولا يخفى أن تكرار هذا الحرف لا يخل بفصاحة الكلام لمناسبته للذوق السليم ، فليس من نوع التكرار المعيب عند البلاغيين .

أما قصيدة أبي تمام في مدح محمد بن حسان الضبي ، فقد بنى قافيتها على حرف النون ، وفيها يقول :

ما اليوم أول توديع ولا الثاني
البين أكثر من شوقي وأحزاني
دع الفراق فان الدهر ساعدني
فصار أملك من روحي وجثماني

ومن اللافت للنظر في البيتين أن صوت النون المعروف بغنته تكرر في هذين البيتين خمس مرات ، لما يتمتع به هذا الصوت من قيم صوتية تواكب تجربة الوداع والفراق المريرة ، ومن ذلك أن حرف النون يخرج من طرف اللسان مع اللثة العليا كما أنه صوت مجهور ، وهو أيضا من أصوات الذلاقة التي يكثر دورانها في اللغة ، والتي تتميز عن غيرها بالحكم بعربية الكلمة الرباعية أو الخماسية أو عدم عربيتها ، وله أحكام كثيرة في القراءات تتعلق بالاظهار والاخفاء والادغام والقلب ، وقد سبق ايراد شئ منها ، كما أن هذا الصوت يشبه الحركة في قوة الوضوح السمعي ، ولهذا جعله بعضهم شبه حركة ،

---

(١) انظر : النص الشعري د /عبده بدوي / ٢٠ ، وانظر :موسيقى الشعر د /صابر عبدالدايم / ٣١ مكتبة الخانجي .

وليس من قبيل المصادفة أن ترد معظم فواصل القرآن الكريم عليه بالاضافة الى ما يسبقه من مد .

أما علاقة ذلك بتجربة الشاعر فيمكن أن تقوم على أن خروجه من طرف اللسان يناسب موقف الوداع الذى يكون فيه المودعون على وشك الرحيل ، فكأن نهاية اللسان التى يخرج منها صوت النون ملائمة لنهاية اللقاء عند المودعين ، كما أن صوت الغنة فى الحرف يساعد على التغنى به فى ابراز لواعج الفراق وآلام الوداع ، وبخاصة أن النون صوت مجهور يساعد على ابراز الشعور بقوة الاحساس بألم الفراق ، وكأنه ألم من نوع جديد خاص ، لأن النون من أصوات الذلاقة التى انفردت بسمة خاصة ، الى غير ذلك مما يمكن أن يوحى به هذا الصوت بموسيقاه فى جو القصيدة .

ونورد فيما يلى نصين من الشعر أعجب بهما صاحب الوساطة ، وهما فى غرض واحد هو الغزل ، لكن التجربة الغزلية فى الأول — وهو لأبى تمام — لم تكن على مستوى التجربة فى الثانى ، وهو للصمة بن عبد الله .

وسنذكر النصين مع تعقيب القاضى الجرجانى عليهما ، ثم نحاول بعد ذلك أن نتحسس أثر تفاوت الصدق فى التجربة على بعض الجوانب الموسيقية للحروف ، مع أن النصين من وجهة نظر القاضى الجرجانى من جيد الشعر .

يقول القاضي : وقد تغزل أبو تمام فقال :

١ ــ دعني وشرب الهوى يا شارب الكأس
فإني للذي حسيته حاسي

٢ ــ لا يوحشنك ما استسمجت من سقمي
فإن منزله بي أحسن الناس

٣ ــ من خلوتي فيه مبدأ كل جائحة
وفكرتي منه مبدأ كل وسواس

٤ ــ من قطع ألفاظه توصيل مهلكتي
ووصل ألحاظه تقطيع أنفاسي

٥ ــ ورقت رقة قلب منه نغصه
منغص من رقيب قلبه قاسي

٦ ــ متى أعيش بتأميل الرجاء إذا
ما كان قطع رجائي في يدي ياسي

ويعلق القاضي الجرجاني على هذه الأبيات بقوله :

" فلم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة، طابق وجانس، واستعار فأحسن، وهي معدودة في المختار من غزله، وحق لها، فقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن، وأصنافا من البديع، ثم فيها من الاحكام والمتانة والقوة ما تراه، ولكني ما أظنك تجد له من سورة الطرب، وارتياح النفس، ما تجده لقول بعض الأعراب[1] : هو الصمة بن عبد الله القشيري) :

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني ٢ ٣٢/٣ مطبعة عيسى الحلبي .

١ ــ أقول لصاحبى والعيس تهوى
بنا بين المنيفة فالضمار

٢ ــ تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

٣ ــ ألا يا حبذا نفحات نجد
وريا روضة غب القطار

٤ ــ وعيشك اذ يحل القوم نجدا
وأنت على زمانك غير زار

٥ ــ شهور ينقضين وما شعرنا
بأنصاف لهن ولا سرار

٦ ــ فأما ليلهن فخير ليل
وأقصر ما يكون من النهار

أما فى قطعة أبى تعلم فاننا نلاحظ عليها فى الجانب الموسيقى للحروف ما يلى :

سيطرة الجو الغزلى على موسيقى القطعة ، ولذلك لا نجد فيها ما يمكن أن يوصف بالتنافر أو الثقل مع أن هناك بعض الأصوات المكررة كالسين فى البيتين الأول والثانى مع ايثار موسيقى هذا الحرف بالترجيع الموسيقى فى القافية . ومن خصائص السين أنها صوت مهموس يناسب مقام الغزل ، كما أنها صوت رخو يتفق مع هذا المقام أيضا ، كما أن الصفير المصاحب لصوتها يوحى بالنغمات الهامسة والهمهمات التى

تخلف حديث الغزل ، وكان لصوت الصاد في القطعـــة وهي من أصوات الصفير أيضا نصيب من ذلك، ويساعد هذا كله على نعومة الأصوات في مقلم الغزل .

وشيوع حرف اللين في البيت الأول من المقطوعة يتفق مع معاناة الشاعر وآلامه التي تكبدها في هواه ، وبخاصة في صوت الياء الذي يشعر مع تردده بالأنين والألم الداخلي ، كما أن تجاور النون للياء يحدث أصواتا منغمة تصور المعاناة النفسية من هـــواه .

ويلاحظ أيضا في البيت الخامس تكرار حرف القافية ست مرات والقاف صوت مفخم انفجاري ، ولذلك كان مناسبا تماما للايحاء بقسوة الرقيب ، والحاحه الذي حمل الشاعر على تكرار هـــذا الصوت ، ومع ذلك لم يصل هذا التكرار الى الثقل الذي يخـــل بالفصاحة على نحو تكراره مع حروف أخرى في قول الشاعر الذي عده البلاغيون ساقطا عن درجة الفصاحة :

وقبر حرب بمكان قفـــــــر
وليس قرب قبر حرب قـــــبر

ذلك أن الذي خفف من ثقله وروده في مواقع متفرقة غـــير متجاورة ، كما سبقه أو لحقته أصوات خففت من هذا الثقل كالـــراء المكسورة في كلمة (رقة) واللام الساكنة بعد القاف في (قلب) وسبق الراء له في كلمة (رقيب) وسبق التنوين له في كلمـــة

(قلبه) ، المهم أن الشاعر وزع هذا الصوت توزيعا موسيقيا يبعده عن التنافر المقيت .

ولكن مع أن النغمة الموسيقية لأصوات الحروف التى أشرنا الى جانب منها كانت مواكبة لتجربة الشاعر وممتزجة بها ، لكن عدم الصدق الكامل فيها جعلها لم تخل من نشاز يذكرن بذلك كالثقل الذى تلحظه فى قوله فى البيت الأول (حسيته حاسى) وتسهيل الهمزة فى البيت الثالث لضرورة الوزن ، وتكرار القاف وان كان لا يخل بالفصاحة فى البيت الخامس ، وبذلك كانت المقطوعة ناضحة بطبيعة التجربة وموحية بها تعلم الايحاء بغض النظر عن مدى صدقها .

وفى المقابل نجد صدق الصنعة فى المقطوعة الثانية باديا فى موسيقاه الداخلية والخارجية واختيار ألفاظه وطريقة نسجها وغير ذلك مما يستدعيه هذا الصدق ، ويعنينا منه أثره فى موسيقى أصواته اللغوية ، ومن ملامح ذلك :

تآلف النغمة الموسيقية فى تناسق فريد ، حيث تحس فى الأبيات كلها رقة النسيم وعبقه الذى يحاول أن يستعيض به عن فراق من يحب و لأن للفراق ألما ولذعة يريد الشاعر أن يخفف منها ، فلم يجد الا تلك النفحات الطيبة كطيب العشق والغرام عندما يصفو ، ومن هذا المنطلق لا تجد فى الأصوات المعبرة نشازا ولا شذوذا أو ما يشبهه على نحو ما لاحظناه فى المقطوعة الأولى ، وقد استعان الشاعر على ابراز ألمه وحنينه بصوت

اللون الطويل فى البيت الأول وهو الياء ، كما اشتمان على ابراز عبق النسيم الذى يستعيض به ، ويستعين به على ألم الفراق بألفاظ تفيض رقة وعذوبة الايحاء بأنه نسيم عطر منعش ، ومن ذلك : (شميم) ،و(نفحات) ،و(ريا) ، وهى كلها تناسب الرغبة فى التخلص من ألم الفراق ، وكلمة (شميم) تتناسب أصواتها مع حركة الاستنشاق ، ولا يخفى ما فى ايحاء (نفحات) و(ريا) بنسيم الصحراء بعد العشاء ، وهو نسيم خال من الغبار يوحى برقة الحب وصفائه .

هذا وقد كان لاختيار بحر الوافر للقطعة نصيب من ابراز وجدان الشاعر لما يوحى به من البساطة وعذوبة الأحاسيس والأفكار (١) .

ولا يخفى بعد ذلك سر ايثار الشاعر لصوت الراء فى القافية وتكراره أيضا فى بعض الأبيات فضلا عن القافية ولأن الراء من حروف (الذلاقة) التى توحى بالخفة على اللسان ، وهذا أمر متناغم فى صوته مع جو الغزل والنسيم اللذين يسيطران على الشاعر ، كما أنه من الأصوات التى تتكرر على طرف اللسان وهذا شئ طبيعى مع تكرار الحديث عن النفحات والشميم والريا فى الأبيات ، كما لا يخلو ايحاء تردده فى طرف اللسان من أمر الفراق .

---

(١) انظر : علم الفصاحة العربية ص : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٥٦ د كتور / محمد على الخفاجى — دار المعارف .

وهكذا ظهر أثر صدق التجربة الشعرية في موسيقى الأصوات اللغوية على نحو لم نحسه على هذا المستوى في التجربة الغزلية لأبي تمام في المقطوعة السابقة .

وفيما يلي أبيات أخرى لأبي تمام نحس بنبرات الصدق فيها وهو يتحدث عن فراق علي بن الجهم :

هي فرقة من صاحب لك ماجد
فغدًا اذابة كل دمع جامد

فافزع الى ذخر الشئون وغربه
فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

واذا فقدت أخا ولم تفقد له
دمعا ولا صبرا فلست بفاقد

أعلي يا ابن الجهم انك دفت لي
سما وخمرا في الزلال البارد

لا تبعدن أبدا ولا تبعد فما
أخلاقك الخضر الربا بأباعد

أما أثر صدق هذه التجربة في موسيقى حروفه فنبرز منه مايلي:

أ- أصوات اللين الممدودة في الأبيات بما يوحي بالهدوء والبطء الذي يبغيه الشاعر في موقف الفراق ، ولذلك يرجو عدم هلاكه أو بعاده بسفره ، وقد كثرت أصوات اللين في الأبيات كثرة ملحوظة تكشف عن نفسية الشاعر وحزنه على الفراق .

ب ـ واكب أصوات اللين الطويلة صوت الكسرة في القافيـة الذي يوحي بالانكسار ، بخلاف صوت الضمة الذي يوحي بالفخامة وصوت الفتحة الذي يوحي بالاستعلاء ، والانكسار هنا انكسـار نفسي بعثه هذا الموقف .

جـ ـ ايثار الدال حرفا للقافية ، وهي من الأصوات الشديدة الانفجارية ، وهذا يتناسب مع شدة الألم والحزن ، وكأن الدال تعبير عن صوت العاشق الذي صار دالا من الحزن ، كمـــا أن ذبذبة الوترين الصوتيين حال النطق بها لأنها صــوت مجهور تتناسب مع هـزة الشوق ورعشة الفراق ، ولأهمية ايقـاع صوت الـــدال حرص القدماء على قلقلته ليظهر صوتـــه بكامل قوتـه .

ولعل هذا يفسر كثرة تكرار هذا الحرف في القصيدة حيث ورد فيها أربعا وأربعين مرة ، ولم يخل بيت واحد منها ، بـل انه يتكرر أحيانا في البيت الواحد أربع مرات كما في البيت الأول[1].

ومما يدل أيضا على الاضطراب النفسي عند الفراق ما نـراه من تنوع الأساليب بين الخبر والانشاء في الأبيات المذكـورة أما تكرار حرف الخاء في الأبيات خمس مرات فيوحي أيضـا بالضعف في موقف الفراق ، لأن الخاء من الحروف الرخوة لا الشديدة .

---

(١) انظر : القيم الاسلامية في الأدب العربي د / صابر عبد الدايم ودراسات في النص الشعري د / عبده بدوي .

وهكذا كل من يتتبع كل أصوات الحروف فى الأبيات لا يعدم ايحاء يتفق مع التجربة الشعرية التى مر بها الشاعر، فظهر صداها فى أصواته اللغوية على مستويات عديدة للشاعر المطبوع، أو الكاتب الموهوب ، الذى تأتى نغمات موسيقاه " وأوزان توقيعها من اضطراب النفس فيها اذ تضطرب فى بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو نحوها ، فتشترى بكلام المتكلم من أبعد موضع فى قلبه حتى تنتهى به الى الحلق ثم ترسله من هناك وكأن ألفاظه عواطف تتغنى" .

" وكان العرب يترسلون أو يحذمون (1) فى منطقهم كيفما اتفق لهم ، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت ، دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت الى أن يتفق مع هذه قطع فى كلامهم تجئ بطبيعة الغرض الذى تكون فيه ، أو بما تحمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقى ، ان لم يكن فى الغاية ففيه ما عرفوه من هذه الغاية " (2) .

ونختم هذه المجموعة بأبيات من سينية البحترى المشهورة لنقف على بعض معالم موسيقى الحرف فيها ، وكيف كانت من أدوات الافصاح عن تجربته .

---

(1) يسرعون .

(2) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢١٣، ٢١٤ مصطفى صادق الرافعى .

يقول البحترى :—

١ — صنت نفسى عما يدنس نفســـى
وترفعـت عن جدا كل جبـــس

٢ — وتماسكت حين زعزعنى الدهـــ
ـر التماسا منه لتعسى ونكسى

٣ — بُلَغ من صبابة العيش عنــدى
طففتها الأيام تطفيف بخــس

٤ — وبعيد ما بين وارد رِفْـــه
علل شربــه ووارد خمـــس

٥ — وكأن الزمان أصبح محمــــو
لا هـواه مع الأخس الأخــس

٦ — واشترائى العراق خطة غبن
بعد بيعى الشـام بيعة وكـس

٧ — لا ترزنى مـزاولا لاختبـــارى
عند هذى البلـوى فتنكر مســى

٨ — وقديما عهدتنى ذا هنــات
آبيات على الدنيئـات شمـس

من الواضح فى الأبيات أن الشاعر يعانى من تجربة مريــرة تدور حول ما أصابه من آلام دهره ، ونكبات أيامه وقسوة ما أصابه من جرائها ، ومع ذلك لم تهن عريكته ، أو تضعف عزيمته ، فظل محتفظا بإبائه ، مترفعا على بلوائه ، متنائيا عن كل خسيــس

في حياته ، وقد كان لذلك أثره القوى الواضح فى أبياتـــه بما تحمل من معاناة ومرارة نحس جانبا منها فى تناسق أصواته وموسيقى حروفه التى من أبرزها ما يلى :

أ ــ قيام الترجيع الموسيقى فى القافية على صوت الســين مع تكرار هذا الصوت بصورة ملموسة فى البيتين الأول والثانــى من المقطوعة ، حيث تكرر فى كل منهما أربع مرات ، وقد صاحبه فى بعضها صوت الصاد كما فى (صنت) ، ومن المعــروف أن السين والصاد من أصوات الصفير ، وكأنهما يوحيان بأنين الشاعر لآلامه ومرارته ، كما توحى الصاد وهى من حروف الاطباق باستحكام هذه الآلام واطباقها على نفسه وثقلها ، كما يشعــر الصوتان معا ، وهما من الأصوات المهموسة الرخوة فى هــذا الموقف بزعزعة الدهر له ، وتمسه مما دفعه الى التماسك والصمود كما يفهم من البيت الثانى ، فقد كان الشاعر ماهرا فى توزيــع صوت السين فى البيت الأول فلم يقع فى التكرار المعيب .

ب ــ أما توالى أصوات اللين القصيرة مع السواكن فى قولــه (صنت) ، و(ترفعت) ، و(يدنس) و(عن) ، و(كل) و(جبس) فى البيت الأول فيشعر بالسعة والقوة اللتين اتصف بهما الشاعر فى مواجهة ما أصابه ، وفى مقابل ذلك نحس ما يعانيه الشاعــر من مرارة وألم فى أصوات المد فى البيتين السادس والسابع فى الألفاظ الآتية : (واشترائى العراق ــ الشام ــ لا تزرنى مــزاولا لاختبارى ــ البلوى ــ مسى) .

جـ ـ أما صوت النون وهو من أصوات الذلاقة الخفيفة الشبيهة بأصوات اللين فقد استخدمه الشاعر بمهارة ودقة على الرغم من كثرة وروده كما فى (صنت نفسى ، عما يدنس نفسى ـ وترفعت ونكس ... الخ) ، لأن هذا الصوت بخفته يزيل ثقل بعض الأصوات الأخرى المجاورة ، كما أنه بغنته يشعر بأنين الشاعر وزفراته ، ولكثرة ما يتمتع به هذا الصوت من خصائص يكثر وروده فى الكلام ، ولذلك ورد فى هذه المقطوعة على هذا الأصل ، وهو مع اللام والميم والنون أكثر ورودا من بقية الأصوات الأخرى ، ففى كل ألف صوت ساكن فى القرآن الكريم ، ترد اللام (١٢٧) مرة والميم (١٢٤) والنون (١١٢) فى حين أن صوتا كالظاء يتكرر ثلاث مرات فقط (١) وبذلك استطاع صوت النون أن يخفف من صوت الصاد المجاورة لها فى (صنت) وصوت الجيم المجاورة لها أيضا فى (عن جدا) .

د ـ تنوع الأصوات فى المقطوعة ـ بصفة عامة ـ بين طويلة وقصيرة مع امتزاج هذه الأصوات أحيانا بأصوات قصيرة ، كما فى (خطة غبن ـ بعد ـ بيعة وكس ـ عند ـ تنكرصى) يتلاءم مع الحالة الشعورية التى كان عليها الشاعر ، من احساس بالمرارة والألم الى شعور بالغدر والظلم الذى دفع الشاعر الى الاباء والشموخ (٢) .

---

(١) انظر : الأصوات اللغوية / ٢٤٤ د / ابراهيم أنيس وعلم الفصاحة العربية / ٢٥٤ ، ٢٥٥ د / محمد على الخفاجى .

(٢) انظر : علم الفصاحة العربية ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

هـ — أما كثرة أصوات اللين فى البيت الأخير (قديمـــا — عهدتنى — ذا هنات — آبيات على — على الدنيئات) فيشعـــر بوضوح المعانى المصاحبة لها عند الشاعر ، واعتزازه بهـــا ، وكلها تدور حول الاباء والعزة ٠

و — استطاع الشاعر بصفة عامة أن يوزع أصواته اللغويـــة ما بين ساكنة ولين قصير أو طويل توزيعا متناسقا متناغما يشـف فى موجاته الموسيقية المتنوعة والمتعددة عما يموج فى نفســـه من مرارة ممتزجة بالاباء والشموخ ٠

ويمكن على ضوء من ذلك أن نتحسس ملامح التجربـــــة الشعرية فى موسيقى الحرف فى النصوص التالية ٠

النص الأول : للمتنبى يمدح سيف الدولة ويعاتبه :

يا أعدل الناس الا فى معاملـــتى
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

اذا رأيت نيوب الليث بـــــارزة
فلا تظنن أن الليث يبتســـم

ومهجة مهجتى من هم صاحبهـــا
أدركتها بجواد ظهره حــــرم

رجلاه فى الركض رجل واليدان يـــد
وفعله ما تريد الكف والقـــــدم

يا من يعز علينا أن نفارقهـــــم
وجداننا كل شئ بعدكم عـــــدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
لو أن أمركم من أمرنا أمم
ان كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
ان المعارف في أهل النهى ذمم
ما أبعد العيب والنقصان من شيمي
أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه
يزيلهن الى من عنده الديم
شر البلاد مكان لا صديق به
وشر مايكسب الانسان ما يصم
وشر ماقنصته راحتي قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم (١)

النص الثاني : لأبي نواس (٢) :
لا أذود الطير عن شجر
قد بلوت المر من ثمره
خفت مأثور الحديث غدا
وغداً دان لمنتظره

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني ١٠٦ ، ١٠٧ مطبعة عيسى الحلبي
(٢) المرجع السابق ٦/ ٥ .

خاب من أسرى الى ملـــــــك
غير معلوم مدى سفـــــره
فامض لا تمنن على يــــــــدا
منك المعروف من كــــدره
رب فتيـــان ربأتهـــــــــم
مسقط العيوق من سحره
فاتقوا بى ما يريبهـــــــــم
ان تقوى الشر من حـــذره(١)

النص الثالث : من سينية شوقى التى قالها فى منفاه(٢) :

اختلاف الليل والنهار ينســـى
اذكرا لى الصبا وأيام أنـــس
وصفا لى مـلاوة من شبـــاب
صورت من تصورات وحـس
عصفت كالصبا اللعوب ومــرت
سنة حلـوة ولذة خلـــس

---

(١) ذكر أبو نواس أنه كانت له صديقة تحبه ، ولكنها كانت تختلف الى آخر سواه ، فلم يصدق حتى رآها كذلك ، وكان هذا الرجل صديقا له ، فلما أقبل عليه يكلمه صرف وجهه عنه ، ثم قال أبياتا ، منها هذه الأبيات ، انظر : هامش الوساطة ٥٦/ ٠

(٢) الشوقيات ٢٢٧/١ ٠

وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسي
كلما مرت الليالي عليه
رق والعهد في الليالي تقسي
مستطار اذا البواخر رنت
أول الليل أو عوت بعد جرس
راهب في الضلوع للسفن فطن
كلما ثرن شاعهن بنقس
يا ابنة اليم ما أبوك بخيل
ما له مولعا بمنع وحبس

* * *

الايقاع الموسيقى للأسلوب

لا شك أن قيمة الألفاظ لا تظهر وهى فرادى لا يجمعها نسق واحد ، أو تآلف منتظم ، ولذلك يركز الامام عبد القاهر على أن اللفظة لا توصف بالحسن أو بالقبح فى ذاتها حتى تدخل فى تركيب معين يبرز حسنها أو قبحها ، والايقاع الصوتى المتناغم للألفاظ داخل النسيج اللغوى له مدخل أساس فى هذا الحسن شريطة أن يكون الغرض المسوق له الكلام هو الذى استدعى ذلك ، لا أن يكون القصد الى مجرد ايقاع صوتى أجوف ،لايضفى على المعنى روحا ، ولا يكسبه بهاء ، ولذلك حرص البلاغيون وهم يتحدثون عن المحسنات البديعية بصفة عامة ، واللفظية منها بصفة خاصة على التنبيه على ألا تكون متكلفة مجلوبة من أجل التناسق الصوتى أو اللفظى فحسب ، كما ينبغى ألا يكثر منها الأديب — شاعرا أو ناثرا — لأن هذا " الاسراف أو ذلك التعمد يؤدى الى الفصل بين اللغة والمقومات الفنية الأخرى ، كما أنه يضعف المقومات التى يجب أن تكون متلاحمة مع بعضها لتكون الوحدة العضوية الكاملة ، وهذه العلاقات الصوتية الموسيقية يجب أن يكون مقدارها موازيا لمقدار الملح فى الطعام ، لأن فى زيادته أو نقصه فسادا واخلالا بالذوق "(١) .

---

(١) علم الفصاحة العربية / ٢٥٢ ، ٢٥٣ د / محمد رزق الخفاجى ، دار المعارف

هذا ولم يغفل القدماء أهمية الجانب الصوتى الموسيقى فى النص الأدبى كالسجع والازدواج والترصيع والتصريع والجناس كما سيأتى ، بل ان ابن سنان الخفاجى جعل هذا شرطا فى الفصاحة ، كما جعل المناسبة بين الألفاظ يرجع بعضها الى الصيغة ، وبعضها الى المعنى ، وذهب الى أن الجانب الأول أدخل فى باب الفصاحة من الثانى شريطة عدم الاسراف الذى يؤدى الى التكلف الممقوت .

" ونحن نجد فى الشعر الجيد موسيقى لم تتولد عن الوزن فقط ، بل نتجت عن علاقات الألفاظ من الناحية الصوتية ، وما يتخلل ذلك من نبرات وتنغيم عند الانشاد ، وهذه الموسيقى التى نتجت عن العلاقات الصوتية لا نستطيع أن نفصلها فى الشعر الجيد عن ألوان الموسيقى الأخرى ، لأنها تتداخل مع بعضها لتكون لنا مزيجا صوتيا عذبا يتآلف مع المقومات الأخرى للعمل الفنى كالصور والمعانى والانفعالات "(1) .

وسنتناول فيما يلى بعض ألوان المحسنات اللفظية لنقف على أثر ايقاعها الموسيقى على النفس حين نتلقى هذه الألوان فى داخل النسق التعبيرى ، ثم نتبع ذلك بحديث موجز عن بعض الملامح الموسيقية لبعض الآيات القرآنية وأثرها فى تحقيق الغرض المقصود ، وبالله التوفيق .

---

(1) المرجع السابق .

الجنـــــاس :

عرفه الخطيب القزوينى بأنه التشابه بين اللفظين (مــع الاختلاف فى المعنى) وقد أشاد الامام عبدالقاهر الجرجانى بهذا النوع من المحسنات اللفظية غير المتكلفة ، وهى التى تأتى على وفق المعنى المراد دون قصد أولى الى تحسين اللفــظ وفى هذا المعنى يقول :

" وأما التجنيس فانك لا تستحسن تجانس اللفظتين الا اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكــن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ، أتراك استضعفت تجنيــس أبى تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت
فيه الظنون أَمَذْهَب أم مُذْهِب

واستحسنت تجنيس القائل :

ناظـراه فيما جنى ناظـــراه
أو دعانى أمت بما أودعانى

لأمر يرجع الى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمَذْهب ومُذْهب علــى أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها الا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عــن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاهـــا " .

ثم استمر حديثه بعد ذلك متجها نحو الموازنة بين النوع المستحسن منه ، والنوع الآخر المستقبح ، مستشهدا على استقباحه لقيامه على الناحية الصوتية الشكلية فقط بقول القائل :

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها
وأعضائها فالحسن عنك مغيب

ومن شواهد الجناس المستحسن عنده أيضا :

* يمشى عن المجد الغبى ولن ترى
فى سؤدد أربا لغير أريب

* فقد أصبحت تغلب تغلبـا
على أيدى العشيرة والقلوب

* ما زلت تقرع باب بابل بالقنا
وتزوره فى غارة شعواء

ولا شك أن اللفظين فى داخل سياقهما الذى يحدد اختلافهما فى المعنى اذا اتفقا بصوت النطق بهما أو تقاربا كان ذلك أدعى للاثارة والطرافة ، وشغل الذهن بالمعانى المختلفة المتفقة أو المتقاربة فى جرس الايقاع اللفظى .

هذا وقد أمعن المتأخرون فى التقسيمات الجديدة لهذا النوع من الجناس ، ونرى عدم ايرادها هنا على نحو ما صنعوه لأن الذى يعنينا هو تذوق بعض الشواهد المشهورة لهذا النوع لنقف على جرسها اللفظى المتفق أو القريب منه مع الاختلاف فى المعنى ، ومن هذه الشواهد :

* (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) .
* حذق الآجال آجال ... والهوى للمرء قتـــال
(آجال الأولى جمع اجل ، وهو القطيع من بقر الوحش) .
* ما مات من كرم الزمان فانـــه
يحيا لدى يحيى بن عبد اللـــه
* وسميـه يحيا ليحيى فلم يكـــن
الى رد أمر الله فيه سبيـــلا
* اذا ملك لم يكن ذا هبـــــه
فدعـه فدولتـه ذاهبـــة
* ولم تضع الأعادى قدر شانـــى
ولا قالوا فـلان قدر شانـــى
* لا تعرض على الرواة قصيـــــدة
ما لم تبالـغ قبل فى تهذيبهـا
* فمتى عرضت الشعر غير مهـــــذب
عدوه منك وساوسا تهذى بهـا
* (ولقد أرسلنا فيهم منذِرين فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين)
* البدعة شرك الشرك .
* (والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق)
* يعدون من أيد عواص عواصـــم
تصول بأسياف قواض قواضب
* لئن صدفت عنا فربت أنفـــس
صواد الى تلك الوجوه الصوادف

* (وهم ينهون عنه وينأون عنه) .
* (ويل لكل همزة لمزة) .
* (وانه على ذلك لشهيد وانه لحب الخير لشديد) [1].

السجع :

أما السجع فقد حده جمهور البلاغيين بأنه توافق الفاصلتين في الحرف الأخير ، وقسموه الى :

المطرّف :

وهو ما اتفقت فاصلتاه في الحرف الأخير دون الاتفاق في الوزن كما في قوله سبحانه : (ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا) .

المرصّع :

وهو ما اتفقت فاصلتاه وزنا وتقفية مع اتفاق باقي ألفاظ القرينتين أو أكثرها في الوزن والتقفية أيضا ، ومن شواهد الاتفاق في الكل : فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه .

* (ان الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) ، (ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم) .

---

(١) انظر : أسرار البلاغة /٤ وما بعدها الامام عبد القاهر الجرجاني تحقيق/محمد رشيد رضا وبغية الايضاح ٤ /٧٢ وما بعدها .

* حامى الحقيقة محمود الخليقة مهدى الطريقة نفاع ضرار .

* سود ذوائبها بيض ترائبها
محض ضرائبها صيغت من الكرم

المتوازى:

وهو ما لم يكن الاتفاق بين ألفاظ قرينتيه فى الكل ولا فى الجل كما هو الحال فى الترصيع وهذا يصدق بثلاث صور :

* ألا يكون هناك اتفاق أصلا بين القرينتين فى الوزن والتقفية كما فى : (فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة) .

* الاتفاق فى الوزن لا التقفية ، كما فى : (حصل الناطق والصامت ، وهلك الحاسد والشامت) .

* الاتفاق فى التقفية لا الوزن كما فى : (والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفا) .

الموازنة والمماثلة :

هناك نوعان قريبان من السجع يطلق على أحدهما : الموازنة ، وعلى الثانى : المماثلة ، أما الموازنة : فتسمى تساوى الفاصلتين فى الوزن دون التقفية كما فى (ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة) ، وأما المماثلة : فقد ذهب ابن سنان فيها الى أنها المناسبة بين الألفاظ من طريق الصيغة ، وجعلها شرطا من شروط الفصاحة ، ومن شواهدها :

* مها الوحش الا أن هاتا أوانس
قنا الخط الا أن تلك ذوابل

* فاحجم لما لم يجد فيك مطمعا
وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

هذا ، وقد ذهب النقاد فى تفاوت درجات حسن السجع الى أن حسنه ما تساوت قرائنه فى عدد الكلمات ليكون شبيهـا بالشعر فى تساوى شطرى الأبيات ، وأحسن هذا الأحسن أقصره قرينة ، وهو ما كان مكونا من كلمتين فى كل قرينة ، وينتهى الأحسن الى تسع كلمات ، وما زاد على ذلك فهو تطويل .

فأما ما كانت قرائنه من لفظين فكما فى قوله تعالى : (وسدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود) ، وكما فى (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا) ، ويلى ذلك فى الحسن ما طالت قرينته الثانية كما فى : (والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) ، ثم ما طالت قرينته الثالثة كما فى : (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) ، هذا من حيث التدرج فى الطول ، أما من حيث التدرج فى القصر فانهم استقبحوا أن يلى القرينة الطويلة قرينة قصيرة قصرا كثيرا ، كما لو قيل مثلا : " خاطبنى خليلى وشغلنى بكلامه الذى هو كالجوهر النفيس فاقتضيت به أحسن تنفيس " ، وأما اذا كان القصر قليلا فلا يضر كما فى قوله سبحانه : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل) [1] .

---

(١) انظر فى هذا الموضوع : دراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية د / عبد الجواد محمد — دار الأرقم الزقازيق .

التصريــــــع :

هذا وهناك نوع آخر من المناسبة بين مقاطع الكلام يجعـــل له وقعا موسيقيا طيبا فى النفس ، ولذلك ولع به الشعـــــراء ، وأغرمـوا بتزيين مطالع أشعارهم بهذه النغمة الموسيقيــــــة الأخاذة فضلا عن الأنغام الموسيقية الأخرى فى الشعر ، وهذا هو ما أطلق عليه التصريع ، وهو جعل العروض مقفاة تقفيــــة الضرب فى مطالع القصائد كما فى قول امرئ القيس : فى مطلـع معلقتـــــه :ـ

قفا نبك من ذكرى حبيب ومـــنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول زهير فى مطلع معلقته :ـ

أمن أم أوفى دمنة لم تكلــــــم
بحومانـة الـدراج فالمتثلـم

وقول عنترة بن شداد فى مطلع معلقته :

هل غادر الشعـراء من مــــتردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

ولم يكتف " عنترة " بالتصريع فى مطلع معلقته ، ولكنه صـــرع فى أبيات أخرى غير المطلع ، منها :

أعياك رســم الدار لم يتكلـــــم
حتى تكلم كالأصـم الأعجـــم

يا دار عبلة بالجـــواء تكلمـــى
وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

وكثير من الشعراء صنعوا ذلك حرصا على مضاعفة النغـــم الموسيقى فى الشعر الذى يرتكز عليه ويستمد منه أهم مقوماته .

هذا ومما ينبغى التأكيد عليه فى هذا المقام أن كل الشواهد القرآنية التى أوردناها للجناس والسجع يتضح منها عند التأمـل ما ركز عليه الامام عبد القاهر الجرجانى من أن الجناس وغيره مـــن المحسنات المعنوية أو اللـــفظية ينبغى أن تكون مستدعـــاة للمعنى ، ولا يكون القصد منها مجرد زخرف لفظى فى المحسنات اللفظية .

هذا فيما يتعلق بموسيقى المحسنات البديعية ، أما فيمـا يتعلق بعلاقة الموسيقى القرآنية بالغرض المقصود من الكــــلام فسنتناول جانبا منه فى الصفحات التالية .

* * *

موسيقى الأسلوب القرآنـــــــى
والغرض المقصود

لا شك أن الجانب الصوتى فى مفردات وكلمات وأساليـــب القرآن الكريم له مدخل أساسى فى اعجازه لا يقل أهميــــــة عما اشتهر عند البلاغيين بالاعجاز البلاغى لهذا الكتاب العزيز بل ان الاعجاز الصوتى يمكن أن يندرج فى هذا الاعجـــــاز البلاغى ما دامت الظواهر الصوتية القرآنية لها علاقة وثيقـــة ومرتكز أساسى فى الوفاء بالغرض المقصود ، وبذلك يندرج هـــذا الجانب فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال الذى تدور عليـــه البلاغة العربيـــة .

وسنتناول فيما يلى بعض ظواهر هذه الموسيقى وأثرهـــا فى الوفاء بالغرض المقصود ، حتى يتضح جانب من أســـرار هذا الكتاب العزيز فى هذه الظاهرة ، وسنتناول هذا الجانب فى الموضوعات التالية بصورة موجزة ، ولكنها على وجازتهـــا تثير الانتباه ، وتلفت النظر ، وتكفى فى الغرض ايرشاداً الله

الايقاع بالتكـــرار :

التكرار بصفة عامة فى القرآن الكريم له أغراض بلاغية عديدة ، من أهمها : التوكيد ، وله صور عديدة يضيق عنها المقام هنـــا . ومن ذلك تكرار الضمير المتصل فى قولـــه تعالـــى : (وقيـــل

اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا ، فاليوم لا يخرجون منها ولا يستعتبون) .

مقام الحديث هنا عن المستهزئين بآيات الله ، المغترين بالحياة الدنيا ، وتكرار الضمير (كم) في هذا المقام يشعر بالتوكيد المستمد من قوة الجرس والايحاء ، كما أن اغلاق الشفتين عند النطق بهذا الضمير يتناسب مع صد هؤلاء المستهزئين بآيات الله ، فهم لم يصموا آذانهم فقط عن سماعها ، ولكنهم أضافوا الى ذلك سد منافذ النطق بالحق ، فكأنهم أغلقوا منفذ السماع في الآذان ، ومنفذ النطق في الأفواه ، ولما كانت هذه النغمة الموسيقية لهذا الضمير مقصودة أتى الضمير جمعا في : (ذلكم بأنكم اتخذتم ...) لتستمر هذه النغمة بجرسها وايقاعها في الزفاء بالمطلوب ، كما تستمر أيضا مع بقية مواقع تكرار هذا الضمير في الايحاء والتوبيخ والزجر ، وفي هذا ما فيه من اشعار بالمهانة والاحتقار .

هذا ، ولا يغيب عن البال ما يشعر به قصر الحركة والسكون في هذا الضمير (كم) من السرعة المتلاحقة في الزجر والتأنيب والوعيد .

أما من حيث مخرج الكاف فهي تخرج من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، ولعل في هذا ايحاء آخر

بأن عذابهم سيكون من أقصى وأقسى أنواع العذاب ، وأما الميم فلعل انحباس الشفتين عند النطق بها يوحى أيضا بالاضافة الى حبس الشفتين عن النطق بالحق الذى يشير الى الصد عن سبيل الله الى أن الله سبحانه قد حبس عنهم هذا العذاب القاسى فى الدنيا لعلهم يرجعون عن غيهم وصدهم ، ولكنهم لم يفعلوا فكان قول الحق سبحانه : (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) .

الايقاع بالصيغة :

من أهم الظواهر الصوتية التى يظهر فيها الايقاع بالصيغة ظاهرة صيغ المبالغة التى تتسم نغمتها بالقوة والعنف كما فى قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) فالصيغتان هنا على وزن " فعّال " وهذا الوزن يوحى بقوة المعنى المشاكلة لقوة الصيغة ، وهذا يدل على مدى صدق وانفعال نوح — عليه السلام — لموقف قومه منه بعد أن لبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ، وكأن الضغط القوى الذى يحسه الناطق بكلمتى (ديارا) ، و(كفارا) يشعر بما يعتمل فى نفس نوح — عليه السلام — من احساس باليأس من هؤلاء الظالمين فى الشرك ، وقد ساعد على مضاعفة

هذا الاحساس ختم كثير من الفواصل القرآنية فى هذه السورة بصوت الراء الذى هو من أصوات التكرار التى تتردد على طرف اللسان .

الايقاع بأسلوب العرض :

من ذلك استحضار صورة مستقبلة بأسلوب الخطاب المباشر ليكون فى ذلك تصوير لحال المخاطبين فى الآخرة تصويرا واقعا ملموسا لأنهم يعايشونه الآن فيكون ذلك وسيلة الى الاقناع والاحساس بالموقف المستقبلى . كما فى قوله تعالى : (ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم) . وايقاع لفظ (الزقوم) هنا الذى يقف فى عمق الحنجرة يحمل جرس الزقزقة . وانتهاء لفظ الزقوم بالميم المسبوقة بالمد . وهى من الحروف التى تنطبق معها الشفتان عند النطق يوحى بعدم استساغة هذا الطعام والصد عنه . ومع ذلك تمتلئ منه البطون من شدة حرقة الجوع .

وختم الفواصل بصوتى النون أو الميم . وهما من أصوات الغنة يشعر بالأنين الذى يحسه الآكل من شجر الزقوم . وأما صوت الشين المكرر فى : " فشاربون شرب الهيم " فى هذا الموقع فيشعر بانتشار هذه الظاهرة الأليمة لدى الآكلين لأن الشين من حروف التفشى . أى انتشار الصوت فى الفم .

وهذا يعنى انتشار الألم واتساعه ، وأما صوت اللين الطويـــل فى (هيم) والذى يدع الفم مفتوحا مع تدلى الشفة السفلـــى قبل النطق بالميم فيحكى الحالة نفسها التى تكون عليها الابل عند الشراب حيث تبقى الشفة السفلى مرتخية ، وفى هذا مـــا يدل على شدة الظمأ الذى يشعر به هؤلاء الضالون المكذبـــون بعد أكلهم من شجرة الزقوم نتيجة للعطش الشديد ، وهـــذا تصوير حى واقعى لمستقبل هؤلاء الضالين يلهب النفـــوس السويــة ، ويشملها حماسا للنفور من معصية الخالق سبحانه ، ولا شك أن الايقاع العام للآيات بصفة عامة قد استمد دلالته من النغمة التى تحدثها الألفاظ مع التناسب فى حروف الفواصل (الميم والنـــون) .

الايقاع بالجرس والحركة :

قد يكون الايقاع الصوتى نابعا من طبيعة اللفظ فى ذاته الذى يحس من يسمعه وقعه ، ويستشعر حركة هذا الوقـــع فى نفسه ، ومن ذلك : (الحاقة ما الحاقة وما أدراك مـــا الحاقة) ، ولا يخفى ما فى صوت هذا اللفظ المكرر ثلاث مـــرات من وقع شديد على الأذن يشعر بهول هذا اليوم ، وكأنه هـــو الحق الضاعف الكثيف ، وكأنه لاحق سواه ، ولذلك كان مـــن آثار هول ذلك اليوم قرع الأسماع به لشدته ، وذلك فى قولـــه سبحانه : (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) فالقيامة تسمى الحاقـــة ، وتسمى القارعة ، وتسمى الغاشية ... الخ ، ولا يخفى ما فـــى

صوت القاف المشددة بعد صوت المد فى (الحاقة) من شدة وقوة تناسب هول ذلك اليوم ، وتناسب أيضا طبيعة صوت القاف، لأنه من الأصوات الانفجارية الشديدة المجهورة ، ولذلك أيضا كان مناسبا لوروده فى لفظ (القارعة) هنا ، وفى سورة القارعة ، التى تكرر فيها هذا اللفظ ثلاث مرات ، فى قوله تعالى : (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة) ، كما أن طول صوت اللين السابق على القاف المضعفة فى (الحاقة) يشعر بثقل ذلك اليوم وأهواله .

ومن مناسبات دلالة هذا الصوت على الجرس والحركة المصاحبة له أيضا قوله تعالى : (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) ، وقد تعاون مع صوت القاف المضعفة هنا صوت الشين الطويلة أيضا وهى من أصوات التفشى التى تنتشر فى الفم عند النطق بها ، وهذا يعنى شدة المشاقة لله ورسوله وشدة العقاب وكثرته أيضا .

التلون والتنوع فى الإيقاع :

وهذا ينبع من الموقف الذى تصوره مجموعة من الآيات ، كموقف المجرم يوم القيامة الذى عبرت عنه الآيات التالية بأسلوب تتناسق متناغم : (يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعا

ثم ينجيه) . وتنوع الايقاع وتلونه هنا ينبع من داخل العبــــارة ومن حسن سبكها ، وجمال رصفها ، وتوزيع أصواتها فى نغمة موسيقية معبرة عن الموقف أصدق تعبير ، ولذلك وردت فواصـــل الآيات السابقة مختومة بمقاطع صوتية (نيه ــ خيه ــ ويه ــ جيه) وهى تشعر بأنين المجرم وتأوهاته بعد أن حاول عبثا أن يفتدى نفسه بأعز ما لديه ، ولذلك يبدأ فى هذا الافتداء بالأعـــــز ثم من هو دونه على الترتيب التنازلى ، بينما نجد موقفا آخـــر للقيامة ، هو موقف فرار كل امرئ من أهله وعشيرته بـــــدئ الترتيب فيه بأبعد المذكورين فى الآية وهو الأخ ، وذلك فـــى قوله سبحانه : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبتـــه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) فكان الابن المذكـــور فى الفرار آخرا هو المذكور أولا فى موقف الافتداء ؛ لاقتضـــاء كل من الموقفين ذلك ، وكان الايقاع متشابها فى الموقفـــين فى ختم الآيات بمقاطع صوتية مشابهة للسابقة ، لأن الموقـــف موقف تأوه وتوجع وأنين لاحداق الخطر بالمجرم الذى يبحث لـــه عن افتداء أو مأوى فيزداد حسرة وألما كما يفهم من الآيـــــة الأولى ، وأما الأنين والخوف فى الثانية فنابع من موقف الفـــرار الذى لا يسأل فيه حميم حميما ، ولا ينفع فيه مال ولا بنون ، الى أن يقضى الله فى خلقه أمرا كان مفعولا .

ومن دقة توزيع الايقاع الموسيقى وترتيبه ما نحسه فى قولـــه تعالى : (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعـــــا ، واذا مسه الخير منوعا) ، ولا يخفى أن الصيغ الثلاث (هلوع ــ

جزوع — منوع) من صيغ المبالغة ، وهي على وزن واحد يعطي نغمة موسيقية واحدة للاشارة الى تأصل هذه الصفات فيه ، وكأنه مجبول عليها ومفطور ، وقد فسر القرآن الكريم معنى الهلع بالجزع عند الشر والمنع عند الخير ، وقد كان ترتيب الايقاع الموسيقى فى الذكر لهذه الأوصاف واردا على حسب ترتيب نطق الحروف الأولى منها ، فالهاء تخرج من أقصى الحلق مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، والجيم تخرج من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، وأما الميم فتخرج من بين الشفتين ، وبذلك كان ترتيب الأوصاف بحسب ترتيب أصواتها الأولى فى النطق ، وأما العين الذى دارت عليه فواصل الآيات الثلاث فى الأوصاف فهو يخرج من وسط الحلق ، وكأن هذه الوسطية تشعر بأن هذه الأوصاف الثلاثة تدور عليها طبيعة الانسان ، وترتكز عليها ، فما أشبهها بمحور الارتكاز فى الأشياء (١) .

ايقاع الفواصل القرآنية :

لا يغيب عن البال ما ذكرناه من أثر السجع وما يدور فى فلكه كالموازنة والمماثلة والترصيع من حسن نغم صوتى كان له أثره فى انجذاب النفس نحو ما تريد العبارة أن تفصح عنه بهذا

---

(١) انظر فى هذا الموضوع بصفة عامة : الاعجاز الفنى فى القرآن : ٢٣٠ عمر السلامى — مؤسسة عبد الكريم عبد الله — تونس .

الأسلوب الأخاذ ، كما أن التوافق الصوتى فى هذه الألوان البديعية كان احدى الوسائل الفعالة فى التعبير عن المعنى المقصود ، وما يطلق عليه سجع فى النثر العربى ، أو قافية فى الشعر العربى يطلق على نظيره فى القرآن الكريم فاصلة ، ويقصد بها الحرف الأخير من الآية الكريمة ، وقد رأينا فى معظم الفواصل القرآنية تماثلا أو ما يشبه التماثل يحدث وقعا موسيقيا يشيع نوعا من الجو النفسى الذى تعالجه الآيات ولا يتسع المقام هنا للافاضة فى هذه القضية (١) ، ولكننا سنورد بعض الشواهد لها من السور القصيرة فى القرآن الكريم .

ومن ذلك ما نراه فى سورة " العاديات " من قوله تعالى : (والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا ان الانسان لربه لكنود وانه على ذلك لشهيد وانه لحب الخير لشديد أفلا يعلم اذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير) .

وما نراه فى سورة العصر : (والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

أو فى سورة الكوثر : (انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر) .

---

(١) انظر : دراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية للمؤلف .

أو فى سورة الاخلاص : (قل هو الله أحد ، الله الصمـــد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) .

أو فى سورة الناس التى تكرر فيها لفظ الناس فى الفاصلة : (قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس من شر الوســواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) .

ونكتفى هنا بالاشارة الى بعض خواص صوت السين الذى دار عليه محور فواصل السورة كلها ، كما أنه تكرر أيضا فى داخل هذه الفواصل ، ولذلك بلغ تكراره فى السورة كلها عشر مرات .

أما خواص هذا الصوت فهى أنه مهموس لا مجهـــــــور ، كما أنه رخو لا شديد ، ومخرجه من طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى ، كما أنه من أصوات الصفير ، والمتأمل لهذه الخصائص يجد أنها أقرب الى الخفاء منها الى الظهور ، وهذا واضـــح فى الهمس والرخاوة التى تعنى الضعف ، أما الطرفية فى مخرجه فتعنى عدم التمكن وعدم القوة ، والصفير الذى يحدثه فى أثناء النطق به ما هو الا صوت ضعيف مصاحب للصوت الأصلـــــى لهذا الحـــرف .

وهذه الخصائص كلها لهذا الحرف تتجه الى الخفاء كمـــا هو واضح ، وهذا يناسب مقام السورة كلها الذى يدور حـــول الاستعاذة ، ولأن المستعاذ به وهو الرب والملك والاله غيب ، والمستعاذ منه وهو شر الوسواس الخناس يدور حول الخفـــاء أيضا ، وموطن الوسوسة وهو الصدور خافية [illegible] الوســواس

الخناس وهما الجِنَّة والناس يقوم على الخفاء أيضا ، أما الجنة فالأمر ظاهر ، لأنهم خفاء ، ووسوستهم خفاء أيضا ، وأما الناس فهم وان كانوا فى عالم الظهور لكن وسوستهم غالبا ما تكون همسا ، وهو أقرب الى الخفاء منه الى الجهر .

هذه بعض الخواطر التى وقفنا عليها فى تناسب طبيعة وخصائص هذا الصوت مع مقام السورة الكريمة ، ولعل ذلك كان من أسرار تكرار هذا الحرف فى فواصل السورة كلها ، ونسأل الله العصمة من الزلل .

وفى النهاية نستطيع القول بأن المتأمل للايقاع الموسيقى فى الفواصل القرآنية يجده ذا صلة وثيقة بالغرض المسوق له الكلام ، فضلا عما يثيره فى النفس من حسن جرس موسيقى تستريح اليه الأذن ، ويصغى اليه الفؤاد ، فتقبل النفس على ما يدعو اليه هذا الجرس النغمى الأخاذ ، وبذلك تندرج موسيقى النص فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وتصبح جانبا مهما من جوانب هذه المطابقة لم ينل حظه المنشود من الدراسة ، ولعل ما ذكرناه هنا يثير الانتباه اليها ، وبخاصة عند الباحثين عن أسرار هذا الكتاب المعجز ، وهى لا تتناهى ، ولا يحيط بها بشر .

* * *

الفصل الخامس

قضايا متنوعة حول :

* الملكة اللسانية وتربيتها .
* معايير حسن وصحة الكلمة .
* تنمية الثروة اللفظية .
* معايير الجملة العربية الصحيحة .

(١)

الملكة اللسانية وتربيتها عند ابن خلدون

يجدر بنا في البداية أن نذكر نص ابن خلدون حول هذه القضية ، ثم نعلق عليه بما نراه في حاجة الى التعليق مع التطرق للمقارنة بين بعض ما ذهب اليه ابن خلدون هنا ، وما يقول به علم اللغة الحديث.

يقول ابن خلدون : " اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة ، اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني ، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة ونقصانها ، وليس ذلك بالنظر الى المفردات ، وانما هو بالنظر الى التراكيب.

فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذى يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة .

والملكات لا تحصل الا بتكرار الأفعال ، لأن الفعل يقع أولا ، وتعود منه للذات صفة ، ثم تتكرر ، فتكون حالا ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار ، فتكون ملكة أى صفة راسخة .

فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية

تعبيرهم عن مقاصدهم ، كما يسمع الصبى استعمال المفردات فى معانيها ، فيلقنها أولا ، ثم يسمع التراكيب بعدها ، فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم ، واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم .

هكذا تصير الألسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والأطفال .

وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أى بالملكة الأولى التى أخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم ، ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم ، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع فى العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب ، فيعبر بها عن مقصوده ، لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات العرب أيضا ، فاختلط عليه الأمر ، وأخذ من هذه وهذه ، فاستحدث ملكة ، وكانت ناقصة عن الأولى ، وهذا هو معنى فساد اللسان العربى »(١) .

يشير ابن خلدون فى بداية عبارته الى أن اللغات كلها ملكات ، وليست طباعا ، فهى أشبه بالصناعات التى يمكن تحصيلها مع تفاوت بين الناس فى ذلك ، ويتحدث ابن خلدون عن ملكة اللغة فى العبارة السابقة من جانبين : أحدهما جانب

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤ / ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ .

الافراد والتركيب فى هذه اللغة ، وثانيهما : جانب تحصيل ، ملكة اللغة وتمكنها ، وهو ما أطلق عليه تكرار الأفعال ، ويرى أن الملكة اللسانية تقوم على التراكيب اللغوية لا على المفردات ، ويستطيع المتكلم عن طريق هذه التراكيب التعبير عن مقصوده بما يجعل الكلام مطابقا لمقتضى الحال الذى هو معنى البلاغة . وفى مجال التدرج فى تمكن الملكة اللسانية يذكر أنها تبدأ بالصفة التى تعنى القدرة على التعبير عن المقصود بعبارة مفيدة ، ثم تصير هذه الصفة بعد ذلك حالا من أحوال الذات الناطقة ، بمعنى أنه يستطيع تكرار هذه القدرة على التعبير غالبا ، أى أنها لا تعنى القدرة المطلقة على ذلك ، فاذا وصلت هذه الحال الى هذه القدرة المطلقة بتكرار هذا التعبير بهذه الكيفية أصبحت ملكة ، أى : صفة راسخة .

ومن الواضح أن " ابن خلدون " هنا لا يقصد اللغة العربية بذاتها ، وانما يقصد اللغات بصفة عامة باعتبارها ظاهرة اجتماعية ورد الحديث عنها فى نطاق حديثه عن هذه الظاهرة .

ومن الواضح مما سبق أيضا أن الملكة اللسانية للغة تقوم على التراكيب المفيدة دون المفردات ، كما أنها تعنى القدرة المطلقة والدائمة على الوفاء بالمقصود من خلال هذه التراكيب .

ونتوقف هنا وقفة نقارن فيها بين ما ذهب اليه ابن خلدون هنا ، وما يقرره علم اللغة الحديث فى هذا المقام .

أما بالنسبة للشق الأول : فان علم اللغة الحديث يقرر أن الدراسة اللغوية تتدرج من علم الأصوات الى الصرف الى النحو ، وعلى مستوى النطق تتدرج من الصوت الى الكلمة الى الجملة ، والجملة هى هدف الدراسة اللغوية السابقة عليها ، وهى التى يتحقق بها الفهم والافهام .

ولا يخفى مدى الاتفاق بين ما ذهب اليه ابن خلدون فى هذا الشق وما يقول به علم اللغة الحديث . أما الشق الآخر والذى يعنى تدرج التعبير من الصفة ، أى مجرد الافهام بالتعبير المركب الى الحال ، أى استطاعته تكرار ذلك مما ينبئ عن انتقاله من مجرد الافهام الى الصحة ثم القدرة الدائمة على تكرار ذلك فى كل المواقف مما ينبئ عن البلاغة التى أطلق عليها الملكة اللسانية ، فهذا الشق سبق به ابن خلدون علماء اللغة المحدثين الذين يذهبون الى أن للغة مستويات ثلاثة هى : اللغة المفهمة ، واللغة الصحيحة ، واللغة البليغة ، وتمثل اللغة المفهمة أدنى درجات الافهام ، لأنه لا يراعى فيها غالبا عرف اللغة المستعملة ولا نظامها فى الأصوات والصيغ والجمل ، وقد أورد الجاحظ نماذج عديدة لهذه الدرجة كانت تجرى على لسان أجانب عصره ، كما أنها تجرى أيضا على لسان الأجانب عن العروبة فى عصرنا .

أما اللغة الصحيحة فهي درجة أعلى من مجرد الافهام ، اذ يراعى فيها نظام الأصوات والبنية والاعراب . أما اللغة البليغة فتسمو فوق هذه المرحلة بما احتويه من مظاهر الجمال والمعانى التى توحى بها دون الافصاح عنها ، وما تكشف عنه من نفسية الكاتب وانطباعاته الدفينة التى يشير اليها تلميحا لا تصريحا .

كما أن حديث ابن خلدون عن اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية لا تختص بلغة دون سواها يتفق أيضا مع ما يذهب اليه علم اللغة العام من أن اللغة ملك من يتعلمها لا أثر فيها للوراثة أو الجنس . ومن هذا المنطلق عد سلمان الفارسى وبلال الحبشى وصهيب الرومى عربا مع أنهم ليسوا من أصل عربى ، ولهذا ورد فى الحديث الشريف: " ألا وان العربية ليست لكم بأب ولا أم ، وانما العربية لسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى "(١) ، وبذلك يكتسب الانسان أى لغة بغض النظر عن جنسه بالتعلم والتدريب المستمر من المجتمع الذى يعيش فيه كما يكتسب عاداته وتقاليده .

ومن نافلة القول أن مستويات اللغة التى تحدث عنها ابن خلدون وصدقها علم اللغة الحديث ما زالت ماثلة حتى الآن ، ولذلك يجب أن تكرس الجهود للانتقال باللغة من مستواها الأدنى الى المستويين الثانى والثالث . وسنعرض

---

(١) انظر : مجلة المنهل السعودية عدد ٤٩٨ مجلد ٤ ص : ١٣٢ ، د / عبد الجواد محمد محمد طبق .

لرأى " ابن خلدون " بعد قليل فى ذلك بعد أن نشير الى تفرقته بين الطبيعة والملكة هنا ، حيث جعل الملكة مكتسبة يقوم اكتسابها على أسس معينة بخلاف الطبيعة التى لا تنفك عن صاحبها منذ ولادته ، ومن هذا المنطلق يرد على من يعتقد أن صواب العرب الأوائل فى نطقها كان طبيعة ، ويؤيده فى ذلك أنه لو كان طبيعة كالاحساس بالجوع أو العطش أو الخوف أو السرور أو الحزن فى الانسان لما تخلف عنه دائما ، وهذا يعنى مثلا أن الطفل العربى ان نشأ فى بيئة لا تتحدث العربية يتحدث هو العربية لأنها طبيعة فى جنسه ، مع أن الواقع خلاف ذلك ، وانما تنشأ هذه اللغة للطفل العربى أو غير العربى ، الذى نشأ فى بيئة عربية لم تسمع أذناه فيها الا العربية فى مستواها الثالث فيألف هذه اللغة ويحاكيها الى أن تصير عنده بالتكرار الدائم ملكة ، شبيهة بالطبيعة التى لا يستطيع أن يتخلى عنها ، ولذلك اذا سمع كلاما لا يسير على وفق المستوى اللغوى الذى ألفه يدرك خطأه بأدنى فكر ، بل وبدون فكر ، وهكذا من ينشأ الآن فى جيلنا من الأطفال اذا أتيحت لهم هذه البيئة اللغوية السليمة ينشأون كأنهم من العرب الأوائل ، وممن تربوا فى جيلهم ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : "فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه ، ويسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التى للعرب ، وان سمع تركيبا غير جار على ذلك

المنحى مجده ، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، بل وبغير فكر ، الا بما استفاد من حصول هذه الملكة ، فان الملكات اذا استقرت ورسخت فى حالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة ، ولذلك يظن كثير ... ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب فى لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعى ، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع ، وليس كذلك ، وانما هى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فى بادئ الرأى أنها جبلة وطبع »(١) .

وما يذهب اليه ابن خلدون هنا من تربية الملكة اللسانية على أساس من المحاكاة للغة الفصيحة فى مستواها الثالث يشير الى قضية تربوية على درجة قصوى من الأهمية ، وهى ضرورة حرص المهتمين بتعليم اللغات وبخاصة فى المراحل الأولى من التعليم على الالتزام باللغة العربية الفصيحة فى جميع أنشطتهم اللغوية أمام التلاميذ والطلاب حتى يتشربوا منهم هذه اللغة ويحاكوها ، فيعينهم ذلك على تعلمها ، لأن تعليم اللغة أصلا يقوم على المحاكاة ، ولو هيئ للأطفال منذ نعومة أظفارهم بيئة لغوية سليمة فى المدرسة وفى البيت وفى الشارع وفى البيئة بصفة عامة لما كانوا بحاجة نظامية الى تعليم هذه اللغة ، ولذلك فطن كثير من الخلفاء والأمراء العرب فى العهود السابقة الى ما للبيئة من أثر كبير فى تعلم اللغة ، فكانوا يرسلون أبناءهم الى البادية ليتشربوا العربية

---

(١) المرجع السابق : ٤/١٢٧٩ .

الصافية من معينها العذب بعيدا عن البيئات الحضارية التى اختلط فيها العرب بالعجم ، وبدأ اللحن يدب الى اللسان العربى ، ولا يغيب عن بالنا فى هذا المقام أن الرأى الراجح فى نشأة اللغة هو نظرية المحاكاة ، وهى تتفق مع رأى ابن خلدون فى هذا المقام .

ولما وجد ابن خلدون شيوع الفساد اللغوى فى البيئات العربية غالبا ، وأنه لم يعد من الممكن أن تتربى الملكة اللسانية عن طريق المحاكاة أشار الى عدة معايير وأسس ينبغى أن تقوم عليها تربية هذه الملكة فى هذه العصور وما بعدها ، وهى أسس خمسة وردت فى عبارته التالية : " وهذه الملكة انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه ، وليست تحصيل بمعرفة القوانين العلمية فى ذلك التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها ، واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة فى اللسان تهدى البليغ الى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب فى لغتهم ونظم كلامهم ، ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسان ؛ لأنه لا يعتاده ، ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده .... وكذلك تحصل هذه الملكة بحفظ كلام العرب وأشعارهم وخطبهم ، والمداومة على ذلك بحيث تحصل هذه الملكة ويصير كواحد ممن نشأ فى جيلهم ، وربى فى

أجيالهم ، والقوانين بمعزل عن هذا "(١) .

والذى نود التركيز عليه فى عبارة ابن خلدون هذه ، أمران : موقفه من القوانين اللسانية فى تربية ملكة اللسان ، وثانيهما : الأسس التى يمكن أن تقوم عليها تربية هذه الملكة .

أما عن مدى فاعلية القوانين اللسانية فى تربية هذه الملكة ، فيرى أنها لا تجدى فتيلا فى ذلك اذا كانت بمعزل عن الأمور الأخرى التى أشار اليها فى عبارته السابقة ؛ لأن الذى أتقن هذه القوانين بمعزل عما سواها يصبح لديه علم فيها ، لا ملكة فى لسانها ، وحول هذا المعنى يقول فى موطن آخر : " والسبب فى ذلك أن صناعة العربية انما هى معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ، فليست نفس الملكات ، وانما هى بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا " ، ثم يضرب لذلك مثلا بما " لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول : هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر ، وتتعاقبانه بينكما ، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية الى أن ينتهى الى آخر الخشبة ، وهو لو طولب بهذا العمل أو شئ منه لم يحكمه .

وهكذا العالم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة فى نفسها ،

---

(١) المرجع السابق .

فان العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل ، وليس هو نفس العمل" (١) .

ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل فى كتابة سطرين الى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى .

وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة يجيد الفنن من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المفعول من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية .

فمن هذا تعلم أن الملكة هى غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة ، وقد نجد بعض المهرة فى صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة ، وهو قليل واتفاقى" .

ومن قبل ابن خلدون نجد ناقدا كبيرا هو " ابن رشيق " يحذر أيضا من الوقوف باللغة عند قوانينها التى لا تربى ذوقا ، ولا تساعد على الافصاح عن المقصود فيقول :

" فليحذر المتأدبون اطمئنانهم الى هذه الدراسات النظرية والى قواعد اللغة والبيان والنقد وحدها ، فتلك مسائل نظرية تفيد العقل معرفة ، ولا تكسب الذوق مرانا وابتكارا ،

---

(١) المرجع السابق .

وكثير من الأقدمين والمحدثين كانوا علماء باللغة والنحو والبلاغة ، ولكن لعدم المرانة الفنية كانوا يعجزون عن تحبير رسالة أو تصوير ما في نفوسهم من أفكار ، شكا ذلك من نفسه أبو العباس المبرد ، وذكر أنه كان يحتاج الى اعتذار من فلتة ، أو التماس حاجة ، فيجعل المعنى الذى قصده نصب عينيه ، ثم لا يجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان في حين أن الكتاب لظفرهم بهذه الناحية التطبيقية أرق الناس في الشعر طبعا ، وأملحهم تصنيفا ، وأحلاهم ألفاظا ، وألطفهم معاني ، وأقدرهم على التصرف ، وأبعدهم من التكلف »(١) .

هذا ، وقد يظن البعض من خلال فهمه لهذه العبارات أن ابن خلدون لا يرى أهمية مطلقة للقوانين اللسانية في تربية الملكة اللسانية ، وهذا الظن غير صحيح ؛ لأن موقف ابن خلدون هنا قائم على الاعتماد على هذه القوانين وحدها في تربية هذه الملكة ، لكن هذا لا ينفي أن تكون لها أهمية قصوى اذا ما كانت داخلة في أسس أخرى تعمل مجتمعة على هذه التربية ، ولذلك وجدناه يدخل هذه القواعد والقوانين معها في الأسس الخمسة التى ذكرها في عبارته السابقة ، وهى التى عبر عنها بالتفطن لخواص تراكيب الكلام ، وسنلقى الضوء فيما يلى على هذه الأسس مع بيان أهمية تعاضدها جميعا في تكوين الملكة اللسانية .

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢/ ٤٨ ، وانظر : أصول النقد الأدبى — أحمد الشايب / ١٤١ .

تربية الملكة اللسانية عند ابن خلــدون

قبل أن نتحدث عن هذه الأسس نود الاشارة فى البدايــة الى أن ابن خلدون يعد واحدا من علماء العرب الموسوعيين الذين كان لهم باع طويل فى كثير من العلوم ، وتعد مقدمتــه التى نقتبس منها بعض العبارات هنا بحق مرجعا لعلوم كثيرة ، فضلا عما اشتهر به ابن خلدون من أنه واضع علم الاجتمــاع من العرب ، وحفلت مقدمته بما يعضد ذلك ، لكننا نجدهــا مرجعا أيضا لبعض العلوم اللغوية والأدبية والنفسية وغيرهــا ، ومن هنا جــاءت أسسه التربوية لملكة اللسان وتربيتهــا قائمة على هذا الأساس ، بل ان من يتمعن فيها فسيجدهــا شاملة للنواحى الثلاثة التى تقوم عليها تربية أية مهارة كمــا سيتضح لنا بعد قليل .

وهذه الأسس كما ذكرها ابن خلدون فى عبارته السابقــة هى ممارسة كلام العرب ، وتكوره على السمع والتفطن لخــواص تراكيبه وحفظ كلام العرب وأشعارهم وخطبهم والمداومــة على ذلك الى أن تتربى هذه الملكة فيصبح صاحبها كواحــد ممن نشأ فى جيل العرب الأوائل وتربى على ملكتهم اللغوية .

والواقع أن ملاحظة الواقع التاريخى على مدار الأجيــال تثبت صحة ما ذهب اليه ابن خلدون فى تربية هذه الملكــة اللسانية ، " فأولئك الذين نشأوا فى التعليم الدينى الأزهرى

أقدر من غيرهم فى ملكة اللسان من خريجى المدارس المدنية ، والسبب فى ذلك يقينا هو حفظ القرآن الكريم والمداومة على تلاوته ، ثم تفسيره ، ولو درست حياة كبار الشعراء والكتاب كأبى تمام والبارودى والعقاد للبحث عن سر تمكنهم من التعبير الصحيح لعرفت أن من أهم أسباب ذلك كثرة ما حفظوه من نصوص الشعر والنثر حين تكوينهم اللغوى فى الصغر والشبيبة ، ومن يتصفح كتابا لتراجم الأدباء والعلماء مثل : " معجم الأدباء " يتأكد لديه أن معظم هؤلاء — كما تقول تراجمهم — قد قرأوا كثيرا من المنظوم والمنثور قبل أن يتصدوا للكتابة الصحيحة الفصيحة ، بل استطاع رواة اللغة مثل : " حماد الراوية وخلف الأحمر " ، باجادة صنعتهم محاكاة الشعراء ونسج الشعر على منوالهم ، وتزييفه بنسبته لهم ، وهذه قضية عريضة تدرس فى تاريخنا تحت اسم " الانتحال " والمهم فى هذه القضية جانبها اللغوى من دلالتها على أن التمرس بالنصوص الصحيحة واستمرار هذا التمرس يصنع الملكة اللسانية التى يصل بها الأمر حد المطابقة بين الأصل والتقليد ، بين الرواية والدراية ، بين الفطرة والصنعة "(١) .

وليس غريبا على من يحرص على ممارسة كلام العرب الفصيح نطقا وكتابة ، كما يحرص أيضا على ألا تسمع أذناه سواه ، ولا يكتفى من ذلك بالممارسة والسماع دون وعى ، بل يدرس أسراره ، ويسبر أغواره ليقف على خصائصه وجماله مضيفا الى ذلك

(١) الملكة اللسانية فى نظر ابن خلدون ٢٩/ ٣٠ د/ محمد عيد عالم الكتب .

حفظ الكثير والكثير من أشعار العرب ونثرها ، مستمرا على المداومة على هذه الأمور الخمسة ، ليس غريبا عليه أن تتربى لديه هذه الملكة ، فيصبح كأنه واحد من العرب الأوائل الذين رضع لغتهم ، وتربى على موائد كلامهم .

واذا كانت تربية أى ملكة تقوم على نواحى التربية الثلاث ، وهى الناحية الوجدانية ، والناحية الادراكية ، والناحية النزوعية . فان هذه الأمور الخمسة تربى هذه الملكة من هذه النواحى الثلاث .

فالناحية الوجدانية :

تتمثل فى الاحساس بجمال الكلام العربى عند حفظه وسماعه والمداومة على ذلك وان كانت النفس لا تدرك سر هذا الجمال كالذى يعجب بالخط الجميل أو المنظر الجميل بشكل عام دون ادراك لأسرار هذا الجمال ، فهذه تربية وجدانية وكثير من قارئى القرآن الكريم وحافظيه وسامعيه يحسون جماله دون ادراك أسراره .

وأما الناحية الادراكية :

فتتمثل فى ادراك أسرار جمال هذا الكلام شعرا ونثرا عند سماعه وحفظه بصفة دائمة ، وهذا ما أطلق عليه ابن خلدون : التفطن لخواص تراكيبه ، وهذه تربية عقلية ولكن من يحس جمال الكلام العربى الفصيح حفظا وسماعا مستمرين

مع الوقوف على أسرار هذا الجمال ، ألا تميل نفسه الى محاكاته والنسج على منواله ، شأنه شأن أى مهارة يعجب الانسان بها ، ويدرك أسرارها فتميل نفسه الى ممارستها ؟ وهذه الممارسة هى الجانب الثالث ، وهى : الناحية النزوعية والتى تتمثل فى ممارسة كلام العرب .

وبهذا تقوم وجهة نظر ابن خلدون فى تربية هذه الملكة التى هى بمثابة الذوق البلاغى الأدبى على ما ذهب اليه علماء النفس من " أن تربية الأذواق من نواح ثلاث : الوجدان ، والادراك ، والنزوع "(١) .

* * *

(١) فى علم النفس الأدبى : ٣/٣٥٤ د . حامد عبد القادر وانظر : أيضا : أصول النقد الأدبى / ١٣٩ ، ١٤٠ — أحمد الشايب .

(٢)

معايير حسن الكلمة

بعد أن تحدثنا فيما سبق عن مشاكلة صوت الكلمة لمعناها ، وأوردنا تطبيقات عديدة على ذلك رأينا من المناسب أن نتحدث عن معايير حسن الكلمة التي يقوم عليها حسن مشاكلتها لمعناها ، لأنه لا يكفي في حسنها أن تتم هذه المشاكلة دون أن تكون حسنة في السمع ، مقبولة في الذوق البلاغي واللغوي ، ولذلك سنعرض هنا لأهم الأسس البلاغية التي تقوم عليها فصاحة الكلمة ، ثم نعرض بعد ذلك لأهم الأسس اللغوية التي تقوم عليها صحتها ، وإن كانت هنا علاقة وثيقة بين الجانبين ، ولا شك أن هذا كله يدخل في اطار التفطن لخواص تراكيب الكلام الذي أورده — ابن خلدون — ضمن تربية الملكة اللسانية في العبارة السابقة .

أهم المعايير البلاغية لفصاحة الكلمة :

ذكر البلاغيون أمورا عدة لفصاحة الكلمة ، من أهمها خلوص الكلمة من تنافر الحروف الذي يجعلها متناهية في ثقل النطق بها على اللسان كما في كلمة (الهعخع)[1] ، وقد تكون الكلمة دون ذلك في الثقل كما في قول امرئ القيس :

غدائره مستشزرات الى العلا
تضل المقاص في مثنى ومرسل

(١) اسم لنوع من الشجر ، وقيل : انها معاياه ولا أصل لها .

أما مقياس التنافر بين حروف الكلمة فى النطق فقد ذهب فيه ابن سنان الى أنه قرب مخارج الحروف " لأن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولا شك فى أن الألوان المتباينة اذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ، لقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود ، واذا كان هذا موجودا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة فى حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة كالعلة فى حسن النقوش اذا مزجت من الألوان المتباعدة ، وقد قال الشاعر فى هذا المعنى :

فالوجه مثل الصبح مبيض
والفرع مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد

ومثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير ، جل كلام العرب عليه ... ولحروف الحلق مزية فى القبح اذا كان التأليف منها فقط ، وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الأمزجة من الألوان ، وبعض النغم من الأصوات "(١) ، ولذلك كان التنافر شديدا فى كلمة (الهعخع) لأن حروفها كلها حلقية .

وعن ظاهرة تنافر الحروف المسببة لثقل الكلمة يقول

---

(١) سر الفصاحة / ٥٤ ، ٥٥ مكتبة ومطبعة صبيح وأولاده .

الدكتور / ابراهيم أنيس : " واللغة العربية فى تركيب أحرف كلماتها تتخذ طريقها الخاص ونهجها الذى تتميز به ، ويكاد يتلخص هذا النهج فى :ــ

١ ــ ندرة تلاقى أصوات الحلق بعضها مع بعض ، بل لا يكاد يلتقى فيها الا العين والهاء ، وترى العين أسبق دائما مثل : " يعهده " فاذا اتصل بالكلمة ضمير الغائب المتصل نرى كلا من حروف الحلق يمكن أن يجاور هذه الهاء مثل : يمدحه ، يبلغه ــ يسلخه .

٢ ــ ندرة تلاقى الحروف القريبة المخرج أو الصفة :

أ ــ فتلاقى اللام والراء والنون بعضها ببعض لا يكاد يوجد فى العربيــــة .

ب ــ وكذلك تلاقى الميم والفاء والباء بعضها ببعض غير معروف فى تراكيب الكلمات العربيـــة .

جـ ــ ندرة التقاء صوتين من أصوات الصفير أو بعبارة أدق صوتين من تلك الأصوات الكثيرة الرخاوة مثل : الزاى ــ السين ــ الذال ــ الثاء ــ الشين .

د ــ ندرة التقاء حرفين من أحرف الاطباق أو التقاء حرف واحد منها مع نظيره غير المطبق ، وحروف الاطباق هى : ــ كما سبق ــ ص ض ط ظ .

هـ ــ التقاء أحرف وسط اللسان مثل : الجيم المعطشة والشين .

تلك الضوابط العامة التى تلخص لنا تنافر الحروف فى اللغة العربية ، والتى اذا صادف أن وردت فى كلمة من الكلمات

تعثرت الألسنة فى نطقها ، وثقلت على الأسماع ، ولذلك نعدها غير موسيقية أو رديئة يتجنبها الفصحاء فى كلامهم ، ويفر منها الشعراء فى أشعارهم الا حين يضطرون اليها اضطرارا ، ولا يجدون عنها مندوحة ، وحينئذ يعاب عليهم استعمالها ، ويتخذها النقاد مواضع طعن فى ألفاظ الشاعر" (١) .

وهذا الضابط الذى ذكره ابن سنان ، وفصله الدكتور ابراهيم أنيس ضابط غالبى لا كلى ؛ لأنه لم يثبت أمام الاستقراء ، " اذ وجد من المتباعد المخارج ما هو قبيح كما فى (ملع) فاذا عُكست حروفها فقيل (علم) صارت عذبة فصيحة فى الذوق السليم ، وليس قرب المخارج أو بعدها هو مقياس القبح أو الحسن دائما ، وانما المعول عليه فى ذلك هو الذوق السليم ، فما استجاده من الحروف المؤلفة منها الكلمة فهو حسن فصيح ، ولو كان قريب المخارج ، وما استقبحه منها ولو كان بعيد المخارج فهو قبيح ، وهذا ما ارتضاه ابن الأثير وغيره من البلاغيين" (٢) .

ومما يؤيد ذلك أنك عندما تسمع كلمة تحس حسنها أو قبحها قبل أن تقف على بعد مخارجها أو قربها ، وقد ورد فى أفصح الكلام التقاء حرفى حلق معا فى قوله تعالى : (ألم أعهد اليكم يا بنى آدم ...) ولذلك استثنى الدكتور أنيس فى عبارته

---

(١) موسيقى الشعر د / ابراهيم أنيس/ ٣٠ .
(٢) مدخل الى البلاغة العربية / ٣٩ د / عبدالجواد محمد — دار الأرقم بالزقازيق — .

السابقة الثقاء بعض حروف الحلق من قبح قرب مخارج الحروف .

أما الضابط الثاني لفصاحة الكلمة فيتعلق بحسن صوت الكلمة ، في السمع الناجم عن حسن تأليف حروفها ، وفي هذا الضابط يقول ابن سنان أيضا : " أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها ، وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة ، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسنا يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه ، كل ذلك وجه يقع التأليف عليه ، ومثاله في الحروف (ع ذ ب) فإن السامع يجد لقولهم : العذيب اسم موضع وعذيبة اسم امرأة ، وعذب وعذاب وعذب وعذبات ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ في التأليف ، وليس ذلك ببعد الحروف في المخارج فقط ، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير ، وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنا أو فننا أحسن من تسميته عسلوجا وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط في السمع " .

ومن الألفاظ التي استحسنها في السمع لفظة تفاوح في قول أبي الطيب المتنبي :ـ

إذا سارت الأحداج فوق نباته

تفاوح مسك الغانيات ورنده .

ثم أورد شاهدا آخر لأبي الطيب أيضا استقبح فيه كلمة : " الجرشى " لما فيها من تأليف يكرهه السمع وينبو عنه ، وذلك في قول أبي الطيب :—

مبارك الاسم أغر اللقـــــب
كريم الجرشى شريف النســب (١)

كما اعتبر كلمة " حَقَلَّد " أشد قبحا من " الجرشى " في تأليف حروفها ، وذلك في قول زهير :

تقى نقى لم يكثر غنيمـــــة
بنهكة ذى قربى ولا بحقلد (٢)

وأما الضابط الثالث لفصاحة الكلمة : فهو ألا تكون متوعرة وحشية حتى لا يحوج الوقوف على معناها الى التنقير في كتب اللغة المبسوطة ، فما أشبه الكلمة الغريبة على هذا النحو بالوحش النافر في الصحراء ، ويمكن أن يمثل لهذا النوع بكلمة (الهعخع) السابقة لغرابتها مع تنافر حروفها ، أو بمـا تناقلته كتب البلاغة عن عيسى النحوى لما سقط عن حماره واجتمع عليه الناس قال : " ما لكم تكأكأتم على كتأكؤكم على ذى جنة ، افرنقعوا عنى " وقد اجتمع في هذه الكلمات عيبا التنافر مـع الغرابة أيضا .

---

(١) الجرشى : النفس .
(٢) الحقلد : الضيق البخيل أو الضعيف .

ويمكن تقسيم الألفاظ في علاقتها بالغرابة من حيث الحسن أو القبح الى ثلاثة أقسام ، قبيح مطلقا ، وهو النادر الاستعمال عند العرب الخلص ، وهو الوحشي الغريب ، وحسن مطلقا ، وهو ما تداوله الأول والآخر ، ولا يسمى غريبا ولا وحشيا ، وحسن عند قوم فلا يسمى وحشيا ولا غريبا عندهم ، ولكنه غريب وحشي عند آخرين ، وهو ما استعمله الأول دون الآخر ، وهو لا يعاب استعماله عند العرب لأنه لم يكن وحشيا ، وهو عندنا وحشي ، وهذا لا يخل بفصاحته ، ويدخل في هذا النوع ما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف من بعض ألفاظ غريبة ، وهي فصيحة ٠

هذا وليس معنى اشتراط خلوص الكلمة من الغرابة أن تكون الكلمات العامية الساقطة فصيحة ، لأن المقصود في هذا المقام ألا تكون الكلمة وحشية غريبة ، ولا عامية مبتذلة ، وضابط البعد عن الغرابة والابتذال أن تكون الكلمة مألوفة لدى العامة فهما لا استعمالا ، لأن فهمهم لها يدل على عدم غرابتها ، وعدم استعمالهم لها يدل على عدم ابتذالها ، وبذلك تكون الكلمة من السهل الممتنع كما يقولون ٠ والذوق السليم كما ينفر من الكلمة الوحشية ينفر أيضا من الكلمة الساقطة ، لأنها لا تهز المشاعر ، ولا تحرك الأحاسيس ٠

وأما الضابط الرابع لفصاحة الكلمة فهو عدم مخالفتها للقياس كفك الادغام في قول أبي النجم :ـ

الحمد لله العلى الأجلل

الواسع الفضل الوهوب المجزل

أو التعبير بالكلمة عن معنى مخالف لما وضعته لها اللغة كاستعمال الأيم فى الثيب فى قول أبى عبادة :ـ

يشق عليه الريح كل عشية

جيوب الغمام بين بكر وأيم

لأن الأيم هى المرأة التى لا زوج لها بكرا أم ثيبا بدليل قوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم) .

ومن ذلك أيضا استعمال جمود العين فى السرور فى البيت التالى :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا

وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

لأن جمود العين معناه بخلها بالدمع عند ارادة البكاء ، وليس معناه السرور كما أراده الشاعر هنا .

ومن الضوابط التى ذكرها ابن سنان أيضا لفصاحة الكلمة أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف ، فانها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة ، ومن الشواهد التى أوردها للكلمات الخارجة عن الفصاحة لخروجها عن المألوف بكثرة حروفها قول أبى الطيب :ـ

ان الكريم بلا كرام منهـــــم
مثل القلوب بلا سويداواتهـــا

وقول أبى تمام :
والى محمد ابتعثت قصائــــدى
ورفعت للمستنشدين لوائــى(١)

والكلمتان اللتان خرجتا عن الفصاحة بالطول فى البيتين هما : سويداواتها ، والمستنشدين ، وهذا الضابط أيضا غــير مطرد ، لأنه قد وردت كلمات طويلة أيضا فى أفصح الكــــلام وهو القرآن الكريم ، وكانت فصيحة فى موقعها مثل "أنلزمكموهـا" "فسيكفيكهم" كما سبقت الاشارة اليه فى بعض التطبيقات .

هذا وهناك ضوابط أخرى لفصاحـة الكلمة ذكرهــــا ابن سنان وغيره ، لكن المقام لا يتسع لذكرها هنا ، ونكتفى بما أوردناه ، وهو من أهم ضوابط فصاحـة المفرد(٢) ، وننتقل الآن الى الحديث عن أهم المعايير اللغوية لاختيار اللفظـــة الفصيحة نطقا وكتابة ، لكن لا يفوتنا أن ننبه هنا الى أن الامام عبد القاهر الجرجانى لا يعول كثيرا على حسن اللفظة أوقبحهـا فى ذاتها ، وانما يعتبر ذلك داخل النسيج اللغوى الذى ترد فيه الألفاظ كما سيأتى .

---

(١) انظر : سر الفصاحة ٧٨ ـ ٧٩ .
(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذه القضية انظر مدخل الى البلاغة العربية/ ٣٤ وما بعدها د / عبد الجواد محمد .

أهم المعايير اللغوية لاختيار الكلمة

لا شك أن الألفاظ التى يقوم عليها بناء الجمل بمثابة البناء الذى يقوم عليه اللبنات ، فكلما كانت لبنات البناء قوية متينة كان البناء نفسه قويا شديد التماسك ، وكذلك انتقاء ألفاظ اللغة ينبغى أن يقوم على معايير وأسس معينة حتى تفى الجملة بالغرض المقصود منها .

وقبل أن نتحدث عن هذه المعايير نشير الى أن ألفاظ اللغة هى رموز لما تعبر عنه ، وبذلك نستطيع استحضار مدلولاتها عن طريق هذه الألفاظ ، ولذلك اذا كانت اللفظة لا تدل دلالة دقيقة وواضحة على معناها عجزنا عن استحضار هذا المدلول فى الذهن ، وعن طريق استحضار المدلول الصحيح للفظة نستطيع أن نقف على الكثير من آثار الماضى ومعالم الحاضر وآفاق المستقبل .

هذا وقد يذهب البعض الى أن دلالة الألفاظ فى اللغة غير دقيقة ، ولا محددة ، لأن اللفظ الواحد قد يدل على عدة معان نعجز من خلالها عن تحديد أى هذه المعانى هو المقصود كما فى لفظ (عين) مثلا ، فانه يدل على بئر الماء ، ويدل أيضا على العين التى نبصر بها ، كما يدل على الذهب وعلى الجاسوس وعلى المقدم فى قومه ، لكنا نقول ان اللغة لم توضع لتستعمل ألفاظها فرادى ، وانما وضعت ألفاظها لتستعمل داخل النسيج اللغوى المتشابك الذى يجعل الألفاظ

يأخذ بعضها بحجز بعض ، ومن خلال هذا النسيج نستطيع تحديد المقصود من بعض الألفاظ التي تدل على أكثر من معنى ، فاذا قلنا مثلا : اذهب الى هذه العين واملأ الدلو كان المقصود عين الماء ، واذا قلنا : هل شاهدت العين قبل شرائها كان المقصود السلعة . أما اذا قلت : فلان عين قريه على أعدائه كان المقصود الجاسوس ... وهكذا فلا ضير أن تشترك عدة معان في التعبير عنها بلفظ واحد .

ومن هذا المنطلق رأينا امام البلاغة عبد القاهر الجرجاني لا يعطي للفظة المفردة مزية في الحسن أو عيبا في القبح لذاتها وانما يحكم عليها بالحسن أو القبح في داخل النسيج اللغوي ، واستدل على ذلك بأن اللفظة الواحدة قد تحسن في موقع دون آخر كلفظة (شئ) في قول عمر بن أبي ربيعة :

ومن مالئ عينيه من شئ غيره
اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وفي قول أبي حية :

اذا ما تقاضى المرء يوم وليلة
تقاضاه شئ لا يمل التقاضيا

لكنها قبحت في موضع آخر كما في قول المتنبي :

لو الفلك الدوار أبغضت سيره
لعوقه شئ عن الدوران

---

(١) انظر : دلائل الاعجاز ٦٦ ، ٦٧ عبد القاهر الجرجاني تعليق وشرح د/محمد عبد المنعم خفاجي .

بل أكثر من هذا نجد أن السياق قد يقلب معنى اللفظة الى عكس معناها ، من ذلك مثلا نجد أن التعزير مصطلح فقهى معين معناه : عقوبة دون الحد ، لكنا نجد هذا المعنى قد انقلب الى معنى التعظيم والتقدير لما ورد مصاحبا لألفاظ أخرى تدور فى فلك هذا المعنى كما فى قوله تعالى عن المؤمنين برسول الله — صلى الله عليه وسلم — : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

ومن هنا تأخذ اللفظة مكانتها وتظهر قيمتها بمصاحبتها لألفاظ أخرى فى سياقها ، وما أشبهها فى ذلك بحبات العقد ، تظهر قيمتها فى انتظامها فى سلك واحد ، وبخاصة اذا وضعت بنظام معين يراعى فيه شكل الحبات وحجمها ، فاذا انفرط هذا العقد فقدت كل حبة كثيرا من قيمتها ، وحقا ما قاله القدماء : " لكل كلمة مع صاحبتها مقام " .

ومن هنا وجدنا أن الاعجاز القرآنى قام على ائتلاف ألفاظه واصطبارها فى بوتقة واحدة ، وعلى نسق معين أعجز العرب أن يحاكوه أو ينسجوا على منواله ، أما ألفاظه فرادى فلم تُعْجِز العرب لأن جلها ما يتوارد على ألسنتهم ، ويدور فى مجتمعاتهم .

وما أشبه الألفاظ فى انفرادها واجتماعها بالأفراد منفردين

أومجتمعين ، فمما لا شك فيه أن الانسان يطرأ على شكله وعلى فكره تغيير كبير عندما يندمج مع الآخرين .

ولا يعنى هذا الحديث أن نهمل قيمة اختيار اللفظة فى ذاتها وإيثارها على غيرها ، وانما يعنى أن نراعى الأسس والمعايير فى اختيار اللفظة التى يقوم عليها بناء الكلام ليكون ذلك معوانا على الوفاء بالمراد منها فى داخل النسيج اللغوى لما ذكرنا .

ومن أهم الأسس التى ينبغى أن يقوم عليها هذا الاختيار الدقة فى اختيار اللفظة وفى تحديدها وفى تحرى الصحة فيها ، وسنتناول هذه الأسس بالايضاح فيما يلى :

الدقة فى اختيار اللفظة :

أشرنا فيما سبق الى أن الدقة فى اختيار اللفظة تعين على احضار مدلولها فى الذهن بوضوح دون لبس أو خفاء ، ويمكن القول بأن عدم الدقة فى اختيار اللفظة يرجع الى أمرين :

أحدهما : عدم القدرة على التمييز بين معانى الألفاظ المترادفة . ذلك أن الألفاظ المترادفة فى اللغة العربية وان كانت تدل على معنى عام واحد ، لكن هناك فروقا دقيقة بين هذه المعانى تجعل ايثار لفظ من هذه الألفاظ على غيره أمرا ضروريا يكشف عن دقة الكاتب وحسن فهمه للغته .

ومعرفة الفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة وسيلة من

وسائل المحافظة على الثروة اللغوية ، كما أنها تعين الكاتب على استخدام اللفظة فى موقعها المناسب .

وحتى نستطيع أن نقف على الفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة علينا بكثرة القراءة المتأنية فى كتب التراث فى المجالات المختلفة ، كما ينبغى الاطلاع على محاولات القدماء فيما كتبوه من كتب عنيت بهذه الفروق ، ومن أهمها :

* فقه اللغة وسر العربية لأبى منصور الثعالبى .
* الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى .
* المخصص لابن سيدة .

وفيما يلى نموذج قصير لما أورده أبو منصور الثعالبى حول أسماء الغبار وأوصافه :

النقع والعكوب : الغبار الذى يثور من حوافر الخيل وأخفاف الابل .

العجاج : الغبار الذى تثيره الرياح .

الرهج والقسطل : غبار الحرب .

العثير : غبار الأقدام .

ولا شك أن غير العارف بهذه الفروق الدقيقة لأسماء الغبار وأوصافه يستعمل لفظ الغبار فى الدلالة على كل هذه المعانى .

ومن هذا المنطلق أيضا نجد فرقا دقيقا بين القعود والجلوس حيث يعنى اللفظ الأول المكث دون الثانى .

وكذلك نجد فرقا دقيقا بين الخوف والخشية ، حيث تستعمــــل الخشية للدلالة على عظمة المخشى ، بينما يعنى الخوف الدلالة على ضعف الخائف ، ويتضح هذا الفرق بصورة أكبر عندمـــــا نقارن بين مواقع هذه الألفاظ فى الكلام العربى الفصيـــــح ، أو فى أفصح الكلام ، وهو القرآن الكريم .

وفيما يلى نموذج يوضح هذه الفروق من خلال مواقــــع لهذه الألفاظ فى القرآن الكريم .

* * *

كنوز لغوية فى مترادفات قرآنيـــة

اذا كان القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب دون سائـــر اللغات لاعتبارات كثيرة من أهمها ما تميز به هذه اللغة مـــن خصائص وسمات لا توجد فى غيرها كالسعة فى المفـــردات والمترادفات وغير ذلك فان القرآن الكريم قد أعجز العرب جميعا فى توظيف هذه الخصائص وتلك السمات ، وتحداهم فيما يرضـــوا فيه من سحر البيان فخروا أمام بلاغته ساجدين مقرين بأنه يعلو ولا يعلى عليه .

وسيتناول حديثنا فى السطور التالية جانبا من الأســـرار الدقيقة بين بعض المترادفات الشائعة فى هذه اللغة ونختار منها القعود والجلوس ، والخوف والخشية ، مرتكزين فى بيـــان الفروق الدقيقة بين هذه المترادفات على تتبع بعض مواقعهـــا فى أفصح الكلام ، وهو القرآن الكريم .

القعود والجلوس :

يشيع غالبا بين الناطقين بالعربية الفصحى بين هذيـــن اللفظين فى المعنى ، فيقع أحدهما فى موقع الآخر ، مع أن بينهما فرقا دقيقا يأبى ذلك ، ويجعل هذا الاستعمال مجافيا للـذوق اللغوى السليم ، ذلك أن القعود يعنى المكث وطول المـــدة بخلاف الجلوس ، وهذا ما يوضحه الفخر الرازى فى قولـــه :

" والفـــرق أن القعـــود جلوس فيـــه مكث حقيقـــة

أو اقتضاء .(١) .

ويعضد ذلك أن تقلبات هذه المادة لا تنفك عن معـــنى المكث ، ومن ذلك : المقعد المعروف ، والفقر المدقع ، وهـــو الذى يلصق صاحبه بالتراب ، والدقعاء ، وهو التراب الكثـــير الذى يبقى فى مسيل الماء (٢) .

وتأسيسا على هذا يطلق على الزمن مُقْعَدًا لا مُجْلسًـــا ، ونقول : قواعد البيت لا جوالسه ، ونقول : للعجائز من النســاء قواعد ، لطول مكثهن وبطء حركتهن فى البيت ، ومنه قوله تعالى (والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا) ((النور / ٦٠)) ويقال لما خصص للركوب من الابل قعودا ، لأنه لما خصـــص لذلك دون حمل الأمتعة صار كأن فيه قعودا دائما ، فالمكث فيه اقتضاء لا حقيقة كما يقول الفخر الرازى (٣) .

ويقال أيضا : فلان جليس الملوك ، ولا يقال : قعيـــد الملوك ، لأن مجالسة الملوك يستحب فيها التخفيف .

وإذا ما استعرضنا مادة القعود بجميع أشكالها فى القرآن الكريم نستشعر منها معنى المكث الذى لا ينفك عنها ونورد فيما يلى طائفة من هذه الآيات :

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ٢٩ / ٧١ ، ٧٢ دار الفكر ، وانظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٤ / ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) انظر المرجعين السابقين .

(٣) المرجع السابق للفخر الرازى .

(الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) ((آل عمران / ١٦٨)) ، (قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم) ((الأعراف/١٦)) ، (وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) ((التوبة / ٥)) ، (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) ((التوبة / ٤٦)) (انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) ((سورة التوبة / ٨٣)) ، (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) ((التوبة / ٩٠)) ، (ولا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا) ((الاسراء / ٢٢)) ، (ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) ((الاسراء / ٢٩)) ، (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) ((الجن / ٩)) ، (النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود) ((البروج / ٥-٦)) .

ومن هذا المنطلق لا يسوغ القول بأن ايثار (قعيد) على (جليس) في قوله تعالى : (اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد) ((ق/١٧)) كان من أجل رعاية فواصل الآيات السابقة واللاحقة ، لأنها مختومة بالدال للمحافظة على حسن النغم السجعي فيها ، لما علم من فرق دقيق بين القعود والجلوس لا يصح وقوع أحدهما موقع الآخر ولا يخفى أن الملكين المتحدث عنهما في الآية الكريمة يلازمان صاحبهما يمينا وشمالا ولا يفارقانه ، ومن هنا كانت مادة القعود هي المناسبة ثم يتبع هذا الغرض الأصلي في التعبير والعدول عليه بلفظ (قعيد) مراعاة فواصل الآيات بما لها

من حسن نغم صوتي ، وجمال تأثير نفسي ، وبهذا يسمو القرآن الكريم على الشعر الموزون والنثر المسجوع في هذه الظاهرة من كلام البشر ، حيث تكون النغمة الموسيقية فيهما غرضا أصيلا .

ولما كان الثبات في معارك الجهاد أمرا مهما ومقصودا كان التعبير بمقاعد القتال في قوله تعالى : (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) ((آل عمران / ١٢١)) .

وبهذا نفهم شيئا من السر في ايثار (مَقْعد) على (مَجْلس) في قوله تعالى : (ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) ((القمر / ٥٤ ، ٥٥)) ، لأن هذا المقعد الصدق للمتقين دائم في نعيم مقيم عند ملك الملوك جميعا

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المقام — واستنباطا مما سبق — أنه ينبغي أن نقول لمن أتاك ونريد منه أن يطول مقامه عندك ، اقعد ، فاذا لم ترد ذلك قلت له : اجلس ، ولعله يعي ما تريد بهذه الكلمة الموجزة في المقامين ، ولا شك أن هذا كنز من كنوز لغتنا العربية التي وسعت كتاب الله لفظا وغاية .

أما مادة " الجلوس " التي تعني عدم المكث كما سبق فلم يرد لها الا شاهد واحد في القرآن الكريم ، وهو قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا ....)

((المجادلة / ١١)) . ومن الواضح أن هذه المجالس مجالس مؤقتة لا دائمة ، ولذلك ينبغي أن يكون التفسح فيها أمرا ميسورا على النفس لقصرها وعدم الكلفة فيها "(١) .

وأما النشوز في الآية الكريمة فالمراد به النهوض من المجلس ولذلك كان من الأدب الاسلامي التفسح في المجالس بالتحرك فيها لتتسع للغير ، أو النهوض منها اذا لزم الأمر . وينبغي أن يكون ذلك سهلا ميسورا على المؤمن ما دامت هذه المجالس غير دائمة كمجالس المساجد لانتظار الصلاة أو لدروس العلم وما أشبهها ، لأنها كلها موقوتة .

ويعضد هذا ايثار مادة الجلوس على القعود في مجلس علم ورد فيه حديث شريف رواه أبو واقد الليثي رضي الله عنه ، ونورده هنا بتمامه لتعم الفائدة ، وهو : " أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بينما هو جالس في المسجد والناس معه اذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان على النبي — صلى الله عليه وسلم — وذهب واحد ، فقال : فوقفنا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهبا ، فلما فرغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ فأما أحدهم فأوى الى الله فآواه الله

---

(١) انظر : المرجع السابق ص : ٢٩ / ٧٠ ، والبرهان ٤ / ٨٤

وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه "(١) .

الخوف والخشية :

وعلى نحو من هذا الفرق الدقيق بين القعود والجلوس نجد فرقا دقيقا بين الخوف والخشية يجعل وضع أحدهما موضع الآخر مجافيا لدقة هذه اللغة واحكامها ، ذلك أن الخشية أشد من الخوف ومرحلة أعلى منه ، لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ان كانت يابسة ، وذلك فوات بالكلية ، والخوف من قولهم ناقة خوفاء اذا كان بها داء ، وذلك نقص ، وليس بفوات "(٢) .

فاستعمالهم (خشية) مع الشجرة اليابسة التي انتهت حياتها دليل على قوة دلالة هذه المادة على الخوف ، وكأن من اشتد به الخوف فأصبح خاشيا ، قد انتهت حياته كالشجرة التي يبست ، بخلاف الخوف المطلق الذى لا يعنى القضاء على الخائف كما يشعر بذلك قولهم فى العبارة السابقة : ناقة خوفاء للتى بها داء ، وعلى أساس من أصل هذا الاستعمال المرئى كانت التفرقة بين الخوف والخشية .

ويمكن أن يفرق بينهما أيضا باعتبار آخر ، وهو أن الخشية تكون من عظم المخشى وإن كان الخاشى قويا ، وأما الخوف فيكون

---

(١) المختار من التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدى ٥٣ ، ٥٤ تحقيق محمود النواوى ومحمد [illegible] .

(٢) انظر : البرهان فى [illegible]

من ضعف الخائف وان كان المخوف يسيرا " . وأساس هذه التفرقة قائم على أن مادة (خ ش ى) فى تقاليبها تدل على العظمة ، ولذلك قالوا : شيخ للسيد الكبير ، وخيش للكتان العظيم ، وأما مادة (خ و ف) فتدل على الضعف ، ولذلك كان الخوف دليلا على ضعف القوة (١) .

وعلى أساس من هذا الجانب النظرى فى التفرقة سيدور حديثنا فى الجانب التطبيقى على طائفة من الآيات القرآنية التى اشتملت على المادتين معا أو على احداهما بما يدعم هذه التفرقة ويحققها من كلام أحكم الحاكمين ، وسنبدأ بالآيات التى اشتملت على المادتين معا ، وهى ثلاث ، نوردها على النحو التالى :

الآية الأولى :

(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا):((النساء ٩/))والمخشى فى الآية الكريمة هو الله سبحانه ، وأما المخوف فهو أمر الذرية الضعاف بعد موت الآباء ، وفى معنى هذه الآية يقول أبو السعود " أمر للأوصياء بأن يخشوا الله ويتقوه فى أمر اليتامى (الذين لهم وصاية عليهم) فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعفاء (٢) بعد موتهم ، وهم الذين يخافون عليهم ،

---

(١) انظر : المرجع السابق ٤ /٧٨ .
(٢) تفسير أبى السعود ٢/١٤٧ دار احياء التراث العربى القاهرة

ولا شك أن المخشى وهو الله أعظم من المخوف ، وهو أمر اليتامى بعد وفاة آبائهم .

الآية الثانية :

((والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب))((الرعد / ٢١)) ، ومن الواضح أن المخشى هو الله سبحانه ، وهو أعظم من المخوف وهو سوء الحساب ومهما بلغ الخوف منه فلن يرقى الى درجة الخشية من الله ، بل انه قد يضعف الخوف منه عند من يحاسب نفسه دائما في الدنيا .

الآية الثالثة :

(فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى)((طه / ٧٧)) والخوف في الآية الكريمة من الدرك وأما الخشية فهي من الغرق ، ولا شك أن الغرق أعظم خطرا من الدرك ، لأن الهلاك فيه محقق ، وأما الهلاك في الدرك فمظنون ، وبهذا لم يكن عطف (تخشى) على (تخاف) من قبيل عطف المترادفات من أجل رعاية الفاصلة ، وانما أتت هذه الرعاية بعد الوفاء بالغرض الأصلي المقصود والذى يقوم على عدم تساوى الكلمتين في المعنى تماما ، وهذا ما عهدنا به القرآن الكريم على الشعر والنثر كما سبق ، وهذه ظاهرة عامة في الفواصل القرآنية المتفقة . فلا نجدها مقصودة لذاتها .

وبهذا يتضح الفرق جليا بين الخوف والخشية من خلال هذه الآيات الثلاث التي وضح منها أن الخشية أعظم من الخوف وأشد ، كما سبق أن ذكرنا في الاعتبار الأول في الفرق بين اللفظين .

وعلى أساس من ذلك نجد آيات كثيرة في القرآن الكريم تنهى عن خشية غير الله وتأمر بخشيته سبحانه ، ومن ذلك: (الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشون) ((البقرة / ١٥٠)) (فلا تخشوا الناس واخشون) ((المائدة / ٤٤)) ، (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ((الأحزاب / ٣٧)) .

وأما قوله تعالى : (فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) ((النساء / ٧٧)) — فللدلالة على المبالغة في الخوف من الناس في مواقع القتال ، حتى أنه ليصل الى درجة الخشية لله أو يفوقها ، ولا شك أن هذا تقرير واقع المتحدث عنهم ، وبيان أنه لا ينبغي أن يصل بهم الخوف الى هذه الدرجة الدالة على ضعف الايمان فضلا عن أن الخوف من القتال في سبيل الله لا ينبغي أن يكون من المؤمن الصادق .

وأما اذا وقع الخوف دون الخشية على غير الأصل في جانب الله فهو للدلالة على ضعف الخائف في ذاته أمام عظمة الله وقوته ، وان كان الخائف في ذاته قويا كما في قوله تعالى : (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)((النحل / ٥٠)) .

والخوف فى الآية الكريمة واقع من الملائكة لربهم كما هو واضح من السياق ، والملائكة وان كانوا أقوياء فى ذواتهم لكنهم ضعاف أمام عظمة الحق سبحانه وقوته ، وقد اقتضى مقام الحديث هنا بيان ذلك لمناسبته للسياق الوارد فيه ، وهو سجود جميع الكائنات فى السموات والأرض والملائكة لعظمة الله سبحانه وخضوعها له خضوعا كاملا مهما كانت قوتها ، لأنها ضعيفة ذليلة أمام الخالق صاحب السلطان والجبروت ، ومن هنا كانت الفوقية المذكورة فى الآية الكريمة (من فوقهم) فوقية عظمة وسلطان فى مقابل ضعف الساجد وخضوعه .

وبهذا لا يتعارض توارد مادتى الخشية أو الخوف على مفعول واحد كلفظ الجلالة أو لفظ الرب أو غيرهما فى القرآن الكريم أو فى الكلام العربى الفصيح ، لأن ذلك يكون باعتبارين ، هما دلالة الخشية على أشد الخوف ، أو دلالة الخشية على عظم المخشى ، ودلالة الخوف على ضعف الخائف كما سبق أن ذكرناه وطبقناه على بعض آى الذكر الحكيم ، وقد رأينا كيف كان مقام كل آية يستدعى أحد الاعتبارين فى الفرق بين الخشية والخوف دون الآخر .

وأما الأمر بخوف الله تعالى بعد النهى عن خوف غيره كما فى قوله سبحانه : (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)((آل عمران / ١٧٥)) فلنهى

الخائفين عن الضعف أمام أولياء الشيطان ، لأن المؤمن الحق ينبغى ألا يضعف الا أمام خالقه سبحانه ، ولذلك كان الأمر بخوف الله دون سواه .

ونكتفى بهذه الشواهد فى ايضاح الفرق بين الخوف والخشية فى ضوء بعض أساليب القرآن الكريم لتكون نماذج تحتذى ومعالم مضيئة فى الوقوف على بعض أسرار لغتنا فى مواقع هاتين المادتين فى كتابنا الكريم الذى لا تنتهى أسراره ولا تنقص عجائبه ، لأنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) والله وحده هو الموفق للصواب ، والهادى الى سواء السبيل .

* * *

ومن طريف ما نقل الينا من بيان للفرق الدقيق بين القيام والوقوف ما أوردته كتب الأدب من أن ابن هرمة سمع من ينشد بيتا له أورد فيه (قائما) مورد (واقفا) فغضب غضبا شديدا ، حيث لم يف اللفظ البديل بما يقصده تماما .

أما البيت الذى حكاه القائل عن ابن هرمة فهو :

بالله ربك ان دخلت فقل لهـا
هذا ابن هرمة قائما بالبـاب

فلما سمع ابن هرمة هذا البيت غضب وقال : أكنت أتسول ؟ فلما سمعه منشد البيت قال : فقاعدا بالباب ، فغضب ابن هرمة

أيضا ، وقال : أكنت أتبول ؟ ، انني قلت (واقفا) ، ويا ليتـــك علمت ما بين اللفظين من فرق .

والفرق الذى يعنيه ابن هرمة هنا ما يصاحب القيام مـــن المكث وطول المدة ، وهذا لا يناسب الغزل الذى يقف بباب صاحبته ؛ لأنه لا يريد أن يشعرها بثقله فى الالحاح عندما يطول قيامه أمام بيتها ، أما الوقوف فلا يعنى المكث وطول المـــدة ولذلك كان مشعرا بخفة الظل ، وهو أمر مهم فى الموقف الغزلى .

وهكذا نجد أهمية الوقوف على معرفة الفروق الدقيقة بين الألفاظ للوفاء بالمعنى المراد دون لبس أو غموض يكشف عن دقة المتكلم أو الكاتب فى اختيار ألفاظه .

أما الأمر الثانى الذى يؤدى الى عدم الدقة فى اختيـــار اللفظة فهو عدم وضع اللفظة فى سياقها المناسب من الكـــلام وقد رأينا فيما سبق كيف كان للسياق أثر مهم فى تحديد معـــنى اللفظة ، ولذلك يستدعى أحيانا بعض الألفاظ التى تناسبـــه دون بعضها الآخر ، كما كان يستدعى لفظا بعينه دون مرادفه ، ولا شك أن اختيار الألفاظ المناسبة للسياق على درجة كبـــيرة من الأهمية للوفاء بالمراد ، ولذلك قد تستعمل لفظا بعينه فـــى سياق فيصلح ، وقد تستخدمه فى سياق آخر فيوقعك فى مشكلة ، فاذا قلت مثلا : لقد اشتريت ثوبا رخيصا ، كانت العبارة مقبولة ولكنك اذا قلت : كان زواجى رخيصا ، كان قولك غير مستســـاغ فى الذوق ، وهذا يحقق ما سبق أن [illegible] صاحبتها مقام ، وقد أوردنا فيما [illegible]

الدقة فى تحديد اللفظـة

ينبغى أن يكون واضحا لدى المهتمين بأساليب اللغـــة وكلماتها أن مفردات هذه اللغة ليست على درجة واحـــدة من حيث العموم ، أو الدقة ، فهناك ألفاظ عامة لا تدل علـى شئ محدد ، وتتدرج هذه الألفاظ من العموم الى التحديـد بدرجات متفاوتة حتى تصل فى النهاية الى التحديد الدقيــق الذى لا يحتمل اللفظ غير معناه المقصود .

ولتوضيح هذه الحقيقة نجد مثلا أن مصطلح " الأسلـوب الأدبى " مصطلح عام ينطبق على أى أسلوب أدبى لأى كاتب ، فاذا قلنا أسلوب طه حسين مثلا كان ذلك تحديدا لدرجـة معينة من الأسلوب الأدبى ، لكننا اذا أردنا أن نحدده أكثـر قلنا : أسلوب طه حسين فى رواياته ، واذا أردنا درجة أكثـر تحديدا من ذلك قلنا : أسلوبه فى " دعاء الكروان " وهكـذا نجد فى اللغة أساليب كثيرة تتدرج فى التحديد من العمـوم الى ما هو أقل عمومية الى ما هو محدد الى ما هو أكثر تحديدا .

وعلى الكاتب أن يراعى التحديد الدقيق فى اختيار ألفاظه لتعبر عما يقصده تماما ، لأن الألفاظ العامة توقع صاحبها فى كثـير من الأحيان فى مشاكل كثيرة ، مثل : الفقيه ـ السياسـى ـ العالم .. الخ . لكن اذا اقتضت طبيعة الموضوع الذى يتحدث فيه ايراد ألفاظ عامة ، كأن يتحدث الكاتب مثلا عن خصائـص الأسلوب الأدبى بصفة عامة ، فلا ضير أن يلجأ الى هذا التعميم

الذى لا يفى بمقصوده سواء ، لكن اذا قلنا مثلا : يرى الفقيه أن لمس الرجل للمرأة الأجنبية لا ينقض الوضوء ، كان هذا القول غير دقيق ، فضلا عن أنه يوقع فى محظور شرعى ولأن هذه المسألة ليست مسلمة على الاطلاق عند جميع الفقهاء ، وانما هو رأى لبعضهم فقط ، ولذلك كان من الضرورى تحديد الفقيه الذى يذهب الى هذا الرأى دون سواه ، وكذلك لو قلنا مثلا : لابد أن يدرس الطلبة أصول التربية قبل تخرجهم ، كان التعبير غير دقيق للتعميم فى لفظ (الطلبة) لأن دراسة هذه المادة خاصة بطلبة كليات التربية فقط ، وهكذا .

تحرى اللفظة الصحيحة :

لا شك أن اللغة أمانة فى أعناق أهلها ، وهم مسئولون عنها بالقدر الذى يطلب ممن ائتمن على شئ أن يحافظ عليه وهذه اللغة هى ميراث الآباء والأجداد الينا ، وعلينا أن نحافظ عليه ليرثه أبناؤنا من بعدنا سليما ، ليظل التواصل بين الذرية والآباء والأجداد ، فنحافظ بذلك على ذاتنا وانتمائنا العربى فضلا عن أن هذه اللغة لغة دستور المسلمين الأول ، وهو القرآن الكريم ، وبقدر حفاظنا على هذه اللغة يكون الحفاظ عليه وفهمه والقدرة على تدبره ، والوقوف على الكثير من أسرار اعجازه ، وبدون هذا الفهم والحفاظ على هذه اللغة تنقطع الصلة بين المسلمين وبين كتابهم ، ويصبح كأنه ألغاز ورموز مقطوعة الصلة بأصحابها ، ومن هنا ندرك مدى ما كان عليه

المستعمرون الأوائل من اهتمام بنشر لغاتهم ، وطمس معالم لغات البلاد المستعمَرة ليقطعوا الصلة بينهم وبين تراثهم الذى يحثهم على مقاومة المستعمرين ، ويعتبر ذلك واجبا مقدسا عليهم ، وما زالت الدول الأوربية الى اليوم تحرص على لغاتها فى أوطانها ، كما تحرص على نشرها خارج أوطانها لما فى ذلك من تحقيق أغراض متعددة من أهمها تحقيق درجة معينة من الانتماء والولاء لأصحاب هذه اللغة ، وليست هناك لغة أولى بالانتماء اليها من لغتنا العربية التى تفوقت على اللغات جميعا فى كثير من الخصائص ، كما تميزت عليهم جميعا بنزول القرآن الكريم بها .

ومن أهم الشروط التى ينبغى تحققها لصحة اللفظة العربية ما يلى :ـ

١ ـ صحة الاشتقاق :

مما تفوقت به العربية على سواها ثراؤها اللفظى الذى أمكنها من التعبير عن كل شئ يرتبط بحياة الانسان بدقة ؛ لأننا نستطيع أن نأخذ من الأصل الواحد قدرا كبيرا من المشتقات التى تساعدنا على الوفاء بما نريد الافصاح عنه ، مثل: الماضى والمضارع والأمر والمصدر واسم المصدر واسم الفاعل واسم المفعول واسم الآلة واسم الهيئة واسم المرة ، ويقوم هذا الاشتقاق من الأصل على قواعد وأصول معينة ينبغى أن تراعى حرصا على سلامة اللغة ، ولذلك أسفر عدم الوقوف على هذه القواعد

عن أخطاء شائعة يرددها الكثير منا دون وعى ، كألفاظ : مباع ، مبروك ، نقييم ... الخ . والصواب : مبيع ، مبارك ، تقويم ، على التوالى .

وقد ينشأ الخطأ عن الجهل بمعرفة قواعد التثنية أو الجمع كما فى : زرقاوتان ، مشتروات ، أكِفَّاء (جمع كفء) .... الخ والصواب : زرقاوان ، مشتريات ، أكفاء .. على التوالى .

وينبغى لمعرفة صحة الاشتقاق الرجوع الى أحد معاجم اللغة المتخصصة ، أو أحد الكتب المعنية بذلك مثل كتاب : شذا العرف فى فن الصرف للأستاذ / أحمد الحملاوى .

ولما كانت معرفة صحة الاشتقاق على درجة كبيرة من الأهمية للحفاظ على سلامة اللغة ، والنأى بالمتكلم عن سخرية الآخرين لعدم سلامة ألفاظه ، وجدنا عالما لغويا كبيرا هو الخليل ابن أحمد يزهو بصيانة لسانه عن الخطأ فى ألفاظه ، وذلك فى قوله :

ولا أقول لقدر القوم قد غليت
ولا أقول لباب الدار مغلوق

والصواب : غلت ومغلق .

٢ ـ أن تكون اللفظة عربية :

عرفنا مما سبق شيئا عن أهمية اللغة فى التعبير عن الذات وفى الاتصال بالآخرين ، والذى نود تأكيده هنا أن اللغة

كائن حي يتفاعل مع غيره أخذا وعطاء ، ولذلك لا تستطيع اللغة أن تعيش بمعزل عن غيرها من اللغات ، ومن هنا رأينا الترجمات المتبادلة بين اللغات ، بل ان كثيرا من العربية تسرب الى غيرها من اللغات ، وبخاصة اللغات الشرقية ، كما أن العربية دخلتها ألفاظ من اللغات الأخرى ، لكن العرب الأوائل كانوا حريصين كل الحرص فى تقبل الألفاظ الوافدة الى العربية فأخضعوها لكثير من التدقيق والتعريب بما يناسب وخصائص العربية .

ودراسة اللغات الأخرى غير العربية على درجة كبيرة من الأهمية ، لكن لا ينبغى أن يكون ذلك على حساب العربية ، اللغة الأم ، ومن المؤلم حقا أننا نجد كثيرا من العرب يتقنون لغات أجنبية ، ويهملون العربية ، بل ان بعض هؤلاء يرى أن حديثه بلغة أجنبية يمثل شخصية حضارية وقيمة ذاتية له ، ولذلك تتوارد على لسانه ألفاظ أجنبية فى حديثه أكثر من العربية ، اما لعجزه عن التعبير عن معانيها بالعربية أو للفخر والمباهات بمعرفة لغة أجنبية ، وعلى أى من الاعتبارين فهذا يدل على قصور فى شخصيته ، وتنكر لذاته ، ولا يسوغ أن يقال فى هذا المقام : ان اللجوء الى بعض المصطلحات الأجنبية ضرورة لفقر العربية فى بعض المفردات التى تعبر عن بعض المخترعات ، لأن العربية أكثر ثراء من غيرها فى المفردات وصدق شاعر النيل فى قوله :

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى
عقمت فلم أجزع لقول عداتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى ؟

ومما يؤسف له أن تجرى كثير من المصطلحات الأجنبية دون مرادفاتها العربية على ألسنة كثير من العرب ، ومن هذه المصطلحات : تليفون بدلا من هاتف ، وتلغراف بدلا من برقية ، وأوتوبيس بدلا من حافلة ، وتاكس بدلا من سيارة أجرة ، وكمبيوتر بدلا من حاسب آلى ... الخ ، ومن المؤسف أيضا أننا نجد أحيانا ترجمة بعض الألفاظ الأجنبية دون اخضاعها لقواعد الصياغة العربية ، ولذلك كثر فى لغتنا : اللامعقول — اللامبالاة — اللا مقبول ، وهى ترجمة حرفية لما يقابلها فى الانجليزية ، وكان من الممكن صياغتها عربيا فنقول : غير المعقول ، عدم المبالاة ، غير المقبول ... وهكذا .

ومرونة اللغة العربية وسعتها جعلت لديها القدرة على التعامل مع المصطلحات الأجنبية الجديدة التى لا نظير لها فى العربية ، وهناك أكثر من طريقة لنقل المصطلحات الأجنبية الى العربية ، ومن أهمها :

ترجمة المصطلح ان صحت الترجمة ، وهو الأعم والأيسر ، فان شق ذلك نستعين بالاشتقاق والقياس ، كما فى فعلنا فى مصطلح المذياع مثلا بدلا من الراديو ، فان تعذر ذلك نكتفى بوجود علاقة مجازية بين المعنى والمصطلح المختار كما فى قولنا رياضيات (Mathematics) فان لم يتيسر ذلك لجأنا الى التعريب وهو آخر ما نركن اليه كما فعلنا فى مكنة (Machine) وبطارية (battary) ، ولا ضير فى ذلك فقديما عربوا الجبر والمخزن ودار الصناعة فنطقوها بما يقرب تماما من العربية ، كما أن أسلافنا القدامى لم يجدوا ضيرا فى تعريب موسيقى وجغرافيا ، فان استعصى كل ذلك استعملنا المصطلح الأجنبى بلفظه ، على أن يتم شرحه بالعربية .

هذا ، ولا ينبغى أن يغيب عن البال أن كثيرا من أسماء الجواهر كلفظة الأوكسجين أصبحت عالمية ، ويمكن استعمالها كما هى ، ولا ضرورة لوضع مصطلحات تقابلها ، ومثل ذلك يقال فى بعض أسماء الوحدات القياسية كالطن والمتر وبعض الأسماء المتعارف عليها ، كالرادار والألكترون ، وفى جميع الأحوال يمكن ادراج المصطلح الأجنبى بازاء العربى اذا اقتضى الأمر ذلك(١) .

---

(١) انظر فى هذه القضية : التحرير العربى ، د / أحمد شوقى رضوان ، ود / عثمان صالح الفريح .

ويمكن على أساس من ذلك تعريب التعليم الجامعي في الكليات التي تقتضي طبيعة الدراسة فيها التعامل مع المصطلحات الأجنبية الكثيرة كالطب والهندسة والصيدلة والعلوم ... الخ .

٣ ـ أن تكون اللفظة غير عامية أو محلية :

من الملاحظ أنه مع مرور الزمن تزداد الفجوة بين اللغة العربية لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ولغة التراث القومي ووسيلة التفاهم بين مائة مليون عربي ولغة الدين لما يقرب من ألف مليون مسلم ، وبين اللغات أو اللهجات المحلية ، ولا شك أن انتشار العامية بين أبناء العروبة لا يقل خطرا عن انتشار الألفاظ الأجنبية بينهم ، لأن ذلك يساعد على تقطيع الأواصر بين أبناء الأمة الواحدة ، فيشعر كل انسان بغربته في داخل الوطن العربي الكبير اذا ما تحدث العامية في غير بيئته الأولى ، ولذلك كانت العربية من أقوى الروابط بين شعوب الوطن الواحد مهما اختلفت سياساتهم أو عقائدهم أو عاداتهم ، ولذلك نجد شاعرا كبيرا هو : معروف الرصافي يشيد بالرابطة اللغوية المتينة بين العراق وتونس على الرغم من الخلافات السياسية في حقبة من الزمن ، وفي هذا المعنى يقول :

أتونس ان في بغداد قوما
ترف قلوبهم لك بالوداد

ويجمعهم وإياك انتساب
الى من خُص منطقهم بضاد
فنحن على الحقيقة أهل قربى
وان قضت السياسة بالبعاد

هذا وكلما ازدادت الفجوة بين العربية والعامية اتسعت الفجوة أيضا بين المسلمين ولغة كتابهم وحديثهم ، وقد يأتى عليهم حين من الدهر لا يستطيعون فيه قراءة كتابهم الكريم فضلا عن فهمه ، وكذلك الحديث الشريف ، ويتبع ذلك الابتعاد عن المصدرين الأساسيين لهذا الدين قراءة وفهما وسلوكا فيصبحون مسلمين اسما وشكلا لا جوهرا وواقعا كما هو حال كثير من المسلمين اليوم .

هذا ، وليست الدعوة الى ممارسة العربية والحرص عليها نطقا وكتابة تعنى الدعوة الى التقعر فى اللغة والبحث عن غرائبها ، لأن الالغاز فى اللغة والتقعر فيها أمر منفر يسقطها عن درجة الفصاحة ، وانما ينبغى أن نحرص على أداء ألفاظنا بما يسمى السهل الممتنع فيها ، وضابطه أن يفهم العامة هذه الألفاظ ، لكنهم لا يستعملونها ، ولذلك يقول ابن المقفع: " عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة " ، ولهذا وجدنا أن أكثر أساليب القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والشعر العربى الفصيح جاءت ألفاظها من هذا النوع السهل البعيد عن الاغراب أو الابتذال ، وأما القلة

من الألفاظ التي جاءت غريبة فكانت لدواع معينة ، وأغراض خاصة لا تؤدي بسواها ، ولا يتسع المقام هنا للحديث عنها .

ويمكن التأكد من براءة الألفاظ التي نستخدمها من اللهجات العامية أو المحلية ، بالرجوع الى أحد المعاجم العربية ، أو الاستعانة بأحد المختصين باللغة العربية ، ولا شك أن الحرص على العربية السليمة ينبئ عن احترام المتكلم أو الكاتب لنفسه فيكسب احترام السامع أو القارئ بغض النظر عن جنسه أو دينه أو وطنه .

كيف تنمي ثروتك اللغوية ؟

ينبغي ألا يفوتنا – بعد الحديث عن الحرص على العربية والابتعاد عن الاسراف في استخدام المصطلح الأجنبي الا على وفق معايير معينة أشرنا اليها فيما سبق ، وكذلك الابتعاد عن الألفاظ العامية واللهجات المحلية ، لا يفوتنا أن نتحدث عن بعض الوسائل المهمة التي يستطيع بها الحريص على لغته أن ينمي ثروته اللفظية حتى يجد المتحمس للغته في مخزونه اللغوي ما يغنيه عن الاستعانة بغيرها من اللغات الأجنبية أو الألفاظ العامية ، كما أن الثروة اللغوية تعين صاحبها على التعبير عن أفكاره صوتا أو كتابة بيسر وسهولة ، كما تجعله قادرا على اختيار ما يساعده على هذا التعبير من بين حصيلته اللغوية ، اذ ليست كل مفردات اللغة حتى ولو كانت متقاربة المعاني كالمترادفات على درجة واحدة في الوفاء بمقصود المتكلم أو الكاتب كما سبقت الاشارة الى شئ من ذلك .

والسطور التالية تحاول الاجابة عن تساؤل معين هـو : كيف ينمى الانسان ثروته اللغوية ؟

الواقع أن المعاجم اللغوية لا تساعد كثيرا فى تنمية هذه الثروة ، وان كانت تعين على الكشف عن معانى الألفاظ الغامضة أو الكشف عن طريقة اشتقاقها أو وسائل ضبطها ، ولذلك كـان لا بد من البحث عن طريقة أخرى تفى بتنمية الثروة اللغويـة الى درجة مقبولة ، وهذا ما نحاوله فى السطور التالية .

وفى البداية تنبغى الاشارة الى أن الانسان المتعلم لـه معجمان لفظيان ، يشكل كل منهما ثروة لفظية لديه على مستوى معين ، أحدهما المعجم العام ، والثانى المعجم الخـاص ، أما المعجم اللفظى العام : فيتمثل فى حصيلة الانسان مـن الألفاظ التى يختزنها فى ذاكرته ، ويمكنه التعرف عليها وفهـم معانيها وادراك ايحاءاتها عندما يراها مكتوبة ، أو يسمعهـا منطوقة ، وتتكون حصيلة هذا المعجم العام لدى الانسـان مما سمعه من أبويه منذ طفولته ، وكذلك ما يدور حوله فى المجتمع من أنشطة لغوية متعددة ، ولكن هل كل ما استقر فى ذهـن الانسان من هذه الحصيلة اللغوية يستخدمه فعلا فى حياتـه منطوقا أو مكتوبا ؟ الواقع يؤكد أن كثيرا مما يعرفه الانسـان من ألفاظ لا يستخدمه فى نشاطه اللغوى المستمر ، ولكنـه يستخدم نسبة معينة من معجمه العام فى هذا النشاط قـد تصل الى الثلث أو الربع ، وهو ما يسمى بالمعجم الخاص فكيف يتم اذن تنمية كل من المعجمين ؟

تقوم تنمية المعجم العام بصفة أساسية على حب المعرفة الذى يدفعه الى التعلم والاستزادة من المعرفة فى شتى مناحى الحياة ،فضلا عن المواد الدراسية التى تزوده بالمعلومات المختلفة التى تنمى فكره وتثرى ألفاظه ينبغى أن تكون لديه رغبة خاصة فى القراءات الأخرى خارج التخصص الذى اتجه اليه فى مرحلة معينة من الدراسة ، فدارس الآداب مثلا يمكن أن يقرأ فى مجالات أخرى كالطب أو الهندسة أو الصيدلة فتتكون لديه حصيلة من الأفكار المدلول عليها بمجموعة من الألفاظ الجديدة عليه ، ولذلك كان من اللازم ألا يحصر نفسه فى قراءة الكتب الأدبية أو الدراسات الانسانية ، فلو أنه قرأ مثلا مقالا فى مجلة عن السيارة لتعرف على مضمون ألفاظ ومصطلحات جديدة لم يكن له الف بها ، مثل : السيترس — المحرك — ذراع المقاومة — الاحتراق الداخلى — قوة الدفع — المقاومة ، وبذلك تضاف هذه الألفاظ الى معجمه العام، وكذلك الحال عندما يتجه دارس العلوم الى القراءة فى مجال الآداب والفنون ، ولا تخفى العلاقة بين نمو الثروة اللغوية وخصوبة الأفكار كما سبق .

أشرنا منذ قليل الى أن المعجم الخاص لدى الانسان هو ما استقر فى ذهنه من ألفاظ يمارسها نطقا ه وكتابة ، والنسبة بين المعجم العام والمعجم الخاص نسبة طردية بمعنى أنه كلما كبر حجم المعجم اللغوى العام زادت نسبة الألفاظ المستخدمة فى المعجم الخاص ، والعكس أيضا صحيح ،

ولتنمية المعجم الخاص يجب أولا أن نتأكد من سلامة الكلمة التى نستخدمها وأصبحت مألوفة لدينا ، وينبغى لتحقيق هذا الهدف أن نتعرف على أكبر قدر من المترادفات بالرجوع الى بعض الكتب المتخصصة فى ذلك للتعرف على الظلال الدقيقة بين الكلمات المشتركة فى المعنى العام ، وبذلك تزداد الثروة اللفظية مع ضرورة الوقوف على الفروق الدقيقة بينها ليُستخدم اللفظ المناسب فى الدلالة على المعنى المقصود بدقة ، ومما يساعد أيضا على تنمية هذا المعجم الخاص لديك أيضا أن تحاول مراجعة ما تكتب بحيث تكون محددا قدر الامكان فى صياغة أفكارك وآرائك ، وهذا يدفعك الى أن تبحث عن عمد عن عدد أكبر من الكلمات ، وفى الوقت نفسه تتعرف على معانى هذه الكلمات واستخدامها السليم ، ومن ثم تضاف الى مخزونك من الثروة اللفظية .

* * *

(٣)

المعايير الصحيحة للجملة العربية

سبق أن تعرضنا لأهم سمات لغة الفكر ولغة الحديث ولغة الكتابة ، وعرفنا أن هناك فجوة كبيرة بين لغة الفكر ولغة الكتابة ، ولذلك يلجأ الكاتب قبل صياغة أفكاره مكتوبة الى عمل المسودات التى يستعين بها على أن تصل كتابته الى القارئ واضحة مفهومة ، ومن هذا المنطلق نرى أن كثيرا من الأخطاء التى تحدث فى الكتابة ترجع الى أن الكاتب لم يفطن جيدا للفرق بين لغة يحاور فيها نفسه ، وهى لغة الفكر التى يغلب عليها العمومية والاختزال والضبابية ، ولغة يحاور فيها غيره ، وهى الوسيلة الوحيدة للاتصال به ، لذلك ينبغى أن نكون جعلها قوية النسج ، محكمة العبارة وافية بالمراد ، لا تترك القارئ فى حيرة ، ولا توقعه فى لبس ، ونحاول فى هذا المقام أن نذكر أهم المعايير التى ينبغى أن تكون عليها الجملة المكتوبة لتفى بالغرض المقصود ، وهى : أن تكون ملتزمة بقواعد النحو وموجزة وواضحة .

١ ـ أهمية الالتزام بقواعد النحو :

يظن كثير من الناطقين بالعربية أن قواعد النحو لا قيمة لها أنه يمكن الوفاء بالمراد بدونها ، ولكن هذا الظن مجاف للصواب تماما ، لأن قواعد النحو وسيلة مهمة فى الوقوف على المعنى المقصود من الجملة ، ولذلك ينبغى أن توضع الجملة الوضع

النحوى السديد حتى تفى بالمراد ، يقول عبد القاهر الجرجانى وهو امام البلاغة العربية ، ومن أئمة النحو أيضا عن النظم الذى ينبغى أن تكون عليه الجملة : " أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله " .

وحتى تتبين لك قيمة القواعد النحوية فى فهم المراد عليك أن تدرك ماذا يكون المعنى لو رفعنا المفعول ونصبنا الفاعل فى قوله تعالى : (انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) ؟ حيث يصبح الخاشى هو الله والمخشى هم العلماء ، وهذا عكس المقصود من الآية الكريمة ، كما أننا لا نتبين الضارب من المضروب لو رفعنا الفاعل والمفعول معا فى قولنا : ضرب محمد على ، وحتى لو أمكن فهم المعنى بدون الالتزام بقواعد النحو فى بعض التعبيرات كما لو قلت : " حضر المهندسون " فان ذلك ليس مسوغا لعدم الالتزام بقواعد النحو ، لأن قائل هذه العبارة سيكون فى عداد الشواذ الخارجين على النمط السليم فى الاستعمالات العربية .

وحتى يتبين لنا قيمة الالتزام بقواعد النحو بصورة أوضح للوفاء بالمراد نجد أن الجملة الواحدة يتغير فيها المعنى بتغير الضبط الاعرابى فيها ، وتأمل معى الجملة الواحدة التالية التى أفادت ثلاثة معان مختلفة لاختلاف الضبط الاعرابى فيها :

- ما أحسنَ محمدٌ (نفى لحسنه) .
- ما أحسنَ محمداً (تعجب من حسنه) .

ـ ما أحسنُ محمدٍ   استفهام عن موضع الحسن فيه .

ومن هذا المنطلق نجد العبارة التالية تتردد على ألسنة النحاة والعربيين دائما وهي : المعنى فرع الاعراب ، أو الاعراب فرع المعنى ، ولعلنا الآن فهمنا المقصود بهذه العبـــــارة في الحالـــــين .

٢ ـ أهمية الايجاز في الجملة :

من العبارات التي تتردد كثيرا على ألسنة البلغاء قولهم : " خير الكلام ما قل ودل" وهذه عبارة محكمة ينبغي أن يكـــون لها أثر كبير في جملنا ، فلا تكون الجملة طويلة طولا عديـــــم الفائدة بكثرة الحشو فيها ، كما لا ينبغي أن تكون الجملـــة مختصرة اختصارا مخلا يقف حاجزا دون فهم المراد منهـــا ، وقد يظن من ليست لهم دراية بخصائص العربية أن كثـــرة الألفاظ في الجملة تزيدها وضوحا ، وتعين على فهم المراد ، ولكن هذا ظن خاطئ ، لأن هذه الكثرة تشتت الذهن ، وتجعـــل الفكرة غامضة ، فضلا عن أن الجملة تفقد رصانتها واحكامهـــا وتأثيرها على القارئ أو السامع ، بما يصيبها من هذا الترهـــل والتفكـــك .

ونقارن فيما يلي بين عبارتين تؤديان فكرة واحدة :

أ ـ كانت الدراسة في القديم قبل تكوين الجامعات في المجتمع لا تساوي شيئا مما تساويه الآن من معرفة وتقدم رغم

حيث كان الطلاب يدرسون عند الكتاب لدى الشيوخ ، وليس مثل الآن حيث المدرسون المتخصصون وغيرهم من ذوى الخبرة الواسعة والعلم الموفور ، فقد أصبحت الجامعات الآن تدرس الكثير من العلوم ، والمعرفة التى يفيد منها الانسان (الطالب) فى جميع المجالات العامة ، حيث يدرس الطالب سواء فى المرحلة الثانوية أم الجامعية كى يفيد وطنه ، وفى الوقت نفسه يستفيد .

ب ـ قبل قيام الجامعات كانت الدراسة تقتصر على مرحلة الكتّاب ، وينقصها التخصص والتنوع اللازمان لبناء المجتمع وتقدمه .

وأظن أنه لا تخفى عليك المقارنة بين العبارتين فى الاتفاق فى الفكرة والاختلاف فى التطويل والايجاز فى التعبير عنها وبالمقارنة بين العبارتين أيضا وجدنا الأولى تتكون من ثمان وسبعين كلمة ، وأما الثانية فتتكون من ست عشرة كلمة ، ومع ذلك اتفقتا فى الوفاء بالمراد واختلفتا فى الدقة والاحكام ، حيث كثرت جمل العبارة الأولى وكلماتها دون فائدة ، وأما الثانية فكان لكل جملة فيها ثمرة فى فكرتها .

ومن هنا نجد أن البلاغيين قسموا الكلام من حيث وفاؤه بأداء الفكرة ، والمقارنة بين ألفاظه وأفكاره الى ثلاثة أقسام هى : الايجاز ، والاطناب ، والمساواة .

ويعنى الايجاز أن تكون الألفاظ أقل من المعانى لكنها

وافية بالمراد ، وتجد لهذا القسم شواهد كثيرة ، منها في القرآن الكريم : (ولكم في القصاص حياة) ، ومن الحديث النبوى الشريف " انما الأعمال بالنيات ... " ،(قل آمنت بالله تعالى ثم استقم ... " ، ومن كلام العرب : " المرء مخبوء تحت لسانه " ، وأما الاطناب فيعنى زيادة الألفاظ عن المعانى لفائدة اضافية دون حشو غير مفيد ، وأما المساواة فتعنى أن تكون الألفاظ على قدر المعانى .

٣ — أهمية الوضوح فى الجملة :

أما المعيار الثالث من معايير صحة الجملة فهو وضوحها ، حتى تحقق للكاتب هدفه في التعبير عن مراده ، ووضوح الفكرة عند القارئ يعتمد اعتمادا كبيرا على وضوحها في ذهن الكاتب ، والعكس أيضا صحيح ، لأن فاقد الشئ لا يعطيه ، وتأمل معى العبارة التالية التى يشوبها الغموض والتفكك لعدم وضوح فكرتها في ذهن كاتبها ، ولذلك كانت الفكرة مضطربة فيها لعدم وضوح جملها : (ويبدأ يقول ان المكان لا قيمة له بالنسبة لأى انسان ، وذكر بأن في هذا المكان أوقاتا مضطربة ، ويبدأ يسأل عما حدث ، معظم الطلاب مجتمعون وهم يتصايحون ويدخنون ، حيث تبين أن هؤلاء من سكان الضواحى) .

هذا ولا يعنى وضوح الفكرة في ذهن الكاتب وضوحها تماما عند القارئ ، لأن الكاتب قد لا يلتزم الصياغة السليمة

الواضحة لفكرته فى جمله ، ويمكن تلخيص الأسباب التى يرجع اليها عدم الوضوح فيما يلى :

أ ـ طول الجملة الزائد :

وهذا يعنى الاسترسال فى الكتابة ، وايراد بعض الألفاظ التى لا ضرورة لها ، والاكثار من أدوات الربط فى الجمل ، دون حاجة ، وتداخل الأفكار فيها بصورة عشوائية كما نلاحظه فى أجوبة كثير من الطلاب فى الامتحانات .

ب ـ سوء الربط :

للروابط فى اللغة خصائص أساسية معينة على فهم المراد ، وهى تجعل الجملة متماسكة واضحة اذا استخدمت الاستخدام السليم ، ولذلك ينبغى أن يتسم الكاتب بالدقة والحذر وهو يستخدم بعض الروابط بين الجمل ، ومنها أدوات العطف وأدوات الشرط ، وتأمل معى الفرق بين الفاء وثم فى الربط بين الجمل الآتية : (أ)

١ ـ فى المعارك الحربية يأمر القائد فيطيع الجند .

٢ ـ فى المعارك الحربية يأمر القائد ثم يطيع الجند .

وتأمل أيضا كيف كان الربط بالشرط أو بالعطف فى مجموعتى الجمل (ب ،جـ) : (ب)

١ ـ واذا وصلت الى هذا الهدف (خبير جيولوجيا) فان الخبير يقوم بالعمل فى ميادين علم التربة والتنقيب فى خبايا الأرض .

٢ ـ واذا وصلت الى هذا الهدف (خبير جيولوجيا) فسأقوم بالعمل فى ميادين علم التربة " .

(جـ)

١ — فى صلاة الجماعة يركع الامام والمأموم .

٢ — فى صلاة الجماعة يركع الامام فالمأموم .

٣ — فى صلاة الجماعة يركع الامام ثم المأموم .

لاشك أنه سيتضح لك صحة الربط فى الجملة الثانية من المجموعة الأولى ، وصحة الربط فى الجملة الثالثة من المجموعة الثانية .

جـ — الخطأ فى وضع علامات الترقيم :

لا ينبغى أن يظن أحد أن علامات الترقيم زينة فى الكلام أو مظهر شكلى يكسبه بهاء ورواء فحسب ؛ لأن ذلك وان كان مهما فى الكتابة ، لكنك تجد كل علامة من هذه العلامات لها موضع خاص ينبغى أن توضع فيه دون سواه ، فلا توضع الفصلة موضع الفصلة المنقوطة ، أو النقطة ، ولا توضع علامة الاستفهام موضع علامة التعجب ، أو النقطة موضع النقطتين ... وهكذا ؛ لأن ذلك يجعل الجملة غير وافية بالمراد ، ويصيب القارئ بنوع من الحيرة فى الوقوف على المقصود ، ولك أن تتصور ماذا يكون عليه الحال فى جملة استفهامية خالية من أداة استفهام اعتمادا على وضع علامة الاستفهام فى نهايتها ، كما تقول لصديقك : أنت خائف ؟ فيقول لك : أنا ؟ أو أهملت علامتى التنصيص التى يوضع بينهما الكلام المنقول بنصه

فيظن القارئ أن هذا الكلام من كلام الكاتب ، مع أنه من كلام غيره ، وليس في العبارة نص صريح على ذلك ، وقد توضع بعض العلامات في داخل الجملة الواحدة فتفسد المعنى وتجعله مضطربا .

واذا رجعت الى الدراسة المفصلة لعلامات الترقيم ومواقعها فستدرك أهميتها القصوى في وضوح العلاقات بين الجمل ، وبين الألفاظ داخل الجملة الواحدة ، وهذا أمر لا يقل في أهميته عن أهمية انتقاء الكاتب لألفاظه وجمله .

* * *

خاتمــــــة

تدور هذه الخاتمة حول أمرين وثيقى الصلة بما سبق عرضه من موضوعات فى هذه الدراسة . أما الأمر الأول فيتعلق بايراد نصوص مختارة من عيون الشعر العربى فى عصور مختلفة للدراسة الصوتية والتحليل الأسلوبى النظمى . وأما الأمر الثانى فيتعلق بايراد نص من أحد كتب التراث حول الأصوات وحكاياتها .

أولا : نصوص مختارة من عيون الشعر العربى :

١ ــ من العصر الجاهلى :

لعنترة بن شداد العبسى . فى الفخر :

١ ــ انى امرؤ من خير عبس منصبــــا
شطرى وأحمى سائرى بالمنصـــل

٢ ــ ان يلحقوا أكرر وان يستلحمـــوا
أشدد وان يلفوا بضنك أنـــــزل

٣ ــ حين النزول يكون غاية مثلنـــا
ويفر كل مضلل مستوهــــل

٤ ــ ولقد أبيت على الطوى وأظلــه
حتى أنال به كريم المأكــل

٥ ــ واذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيت خيرا من معم مخـــول

٦ — والخيل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل

٧ — بكرت تخوفني الحتوف كأنني
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

٨ — فأجبتها ان المنية منهل
لابد أن أسقى بكأس المنهل

٩ — فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي
اني امرؤ سأموت ان لم أقتل

١٠ — ان المنية لو تمثل مثلت
مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل

١١ — والخيل ساهمة الوجوه كأنما
تسقى فوارسها نقيع الحنظل

١٢ — واذا حملت على الكريهة لم أقل
بعد الكريهة ليتني لم أفعل

١٣ — عجبت عبيلة من فتى متبذل
عاري الأشاجع شاحب كالمنصل

١٤ — شعث المفارق منهج سرباله
لم يدهن حولا ولم يترجل

١٥ — لايكتسي الا الحديد اذا اكتسى
وكذاك كل مغاور مستبسل

١٦ — قد طال ما لبس الحديد فانما
صدأ الحديد بجلده لم يغسل

١٧ـ فتضاحكت عجبا وقالت قولـة
لا خير فيك كأنها لم تحفـل

١٨ـ فعجبت منها كيف زلت عينهـا
عن ماجد طلق اليدين شمردل

١٩ـ لا تصرميني يا عبيل وراجعي
في البصيرة نظرة المتأمـل

٢٠ـ فلرب أملح منك دلا فاعلمي
وأقر في الدنيا لعين المجتلي

٢١ـ وصلت حبالي بالذى أنا أهلـه
من ودها وأنا رخي المطـول

٢٢ـ يا عبل كم من غمـرة باشرتهـا
بالنفس ما كانت لعمرك تنجلي

٢٣ـ فيها لوامع لو رأيـت زهاءهـا
لسلوت بعد تخضب وتكحـل

٢٤ـ اما تريني قد نحلت ومن يكن
غرضا لأطراف الأسنة ينحـل

٢٥ـ فلرب أبلج مثل بعلك بـادن
ضخم على ظهر الجواد مهبل

٢٦ـ غادرته متعفرا أوصالـه
والقوم بين مجرح ومجـدل

٢٧ـ فيهم أخو ثقـة يضارب نـازلا
بالمشرفي وفارس لم ينـزل

وله أيضا فى يوم الفروق :

١ — ألا قاتل الله الطلول البواليـــا
وقاتل ذكراك السنين الخواليـــا
٢ — وقولك للشئ الذى لا تنالـــه
اذا ما هو احلولى ألا ليت ذاليا
٣ — ونحن منعنا بالفروق نساءنـــا
نطرف عنها مشعلات غواشيـــا
٤ — حلفنا لهم والخيل تردى بنا معـا
نزايلكم حتى تهروا العواليـــا
٥ — عوالى زرقـا من رماح ردينـــة
هرير الكلاب يتقـن الأفاعيـــا
٦ — تغاديتم أستاه ينب تجمعـــت
على رمة من العظام تغاديـــا
٧ — ألم تعلموا أن الأسنـة أحـــرزت
بقيتنا لو أن للدهر باقيـــا
٨ — أبينا أبينـــا ان تضب لثاتكـــم
على مرشفات كالظباء عواطيـــا
٩ — وقلت لمن قد احضر الموت نفســه
ألا من لأمر حازم قد بدا ليـــا
١٠ — وقلت لهم ردوا المغيرة عن هـــوى
سوابقها وأقبلوها النواصيـــا
١١ — فما وجدنـــا بالفروق أشابـــة
ولا كشفا ولا دعينـــا مواليـــا

١٢ ـ ونحفظ عورات النساء ونتقى
عليهن أن يلقين يوما مخازيا

١٣ ـ وانا نقود الخيل حتى رؤوسها
رؤوس نساء لا يجدن فواليا

١٤ ـ تعالوا الى ما تعلمون فاننى
أرى الدهر لا ينجى من الموت ناجيا (١)

٢ ـ من العصر الأموى :

للفرزدق يمدح زين العابدين حين سأل سائل عند طوافه بالبيت مَنْ هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة ، فقال هشام بن عبد الملك لا أعرفه :

١ ـ هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم

٢ ـ هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم

٣ ـ اذا رأته قريش قال قائلها
الى مكارم هذا ينتهى الكرم

٤ ـ يُغضى الى ذروة العز التى قصرت
عن نيلها عرب الاسلام والعجم

٥ ـ يكاد يمسكه عرفان راحته
ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

---

(١) انظر نص القصيدتين فى مختار الشعر الجاهلى تحقيق/ مصطفى السقا .

٦ ـ في كفه خيزران ريحه عبق

من كف أروع في عرنينه شمم

٧ ـ يغضي حياء ويغضى من مهابته

فما يكلم الا حين يبتسم

٨ ـ ينشق نور الهدى عن نور غرته

كالشمس تنجاب عن اشراقها الظلم

٩ ـ مشتقة من رسول الله نبعته

طابت عناصره والخيم والشيم

١٠ ـ فليس قولك من هذا بضائره

العرب تعرف من أنكرت والعجم

١١ ـ كلتا يديه غياث عم نفعهما

تستوكفان ولا يعروهما عدم

١٢ ـ سهل الخليقة لا تخشى بوادره

يزينه اثنان حسن الخلق والشيم

١٣ ـ ما قال لا قط الا في تشهده

لولا التشهد كانت لاءه نعم

١٤ ـ عم البرية بالاحسان فانقشعت

عنها الغياهب والاملاق والعدم (١)

---

(١) أنظر مجموعة النثر والنظم للحفظ والتسميع ـ المطبعة الأميرية / ٧٣ .

٣ ـ من العصر العباسي :

لأبي الحسن الأنباري :

يرثي أبا طاهر بن بقية وزير عز الدولة لما قتل وصلب، وهي من أعظم المراثي ، ولم يسمع بمثلها في مصلوب حتى ان عضد الدولة الذي صلبه تمنى لو كان هو المصلوب ، وقيلت فيه :

١ ـ علو في الحياة وفي الممات
لحق أنت احدى المعجزات

٢ ـ كأن الناس حولك حين قاموا
وفود نداك أيام الصلات

٣ ـ كأنك قائم فيهم خطيبا
وكلهم قيام للصلاة

٤ ـ مددت يديك نحوهم احتفاء
كمدهما اليهم بالهبات

٥ ـ ولما ضاق بطن الأرض عن أن
يضم علاك من بعد الوفاة

٦ ـ أصاروا الجو قبرك واستعاضوا
عن الأكفان ثوب السافيات

٧ ـ لعظمك في النفوس تبيت ترعى
بحراس وحفاظ ثقات

٨ ـ وتوقد حولك النيران ليلا
كذلك كنت أيام الحياة

٩ ـ ركبت مطية من قبلُ زيدٌ
علاها في السنين الماضيات

١٠ ـ وتلك قضية فيها تأسٍ
تباعد عنك تعيير العداة

١١ ـ ولم أر قبل جذعك قط جذعا
تمكن من عناق المكرمات

١٢ ـ أسأت الى النوائب فاستثارت
فأنت قتيل ثأر النائبات

١٣ ـ وكنت تجيرنا من صرف دهر
فعاد مطالبا لك بالترات

١٤ ـ وصير دهرك الاحسان فيه
الينا من عظيم السيئات

١٥ ـ وكنت لمعشر سعدا فلما
مضيت تفرقوا بالمنحسات

١٦ ـ غليل باطن لك في فؤادي
يخفف بالدموع الجاريات

١٧ ـ ولو أني قدرت على القيام
بفرضك والحقوق الواجبات

١٨ ـ ملأت الأرض من نظم القوافي
ونحت بها خلاف النائحات

١٩ ـ ولكني أصبر عنك نفسي
مخافة أن أعد من الجناة

٢٠ ــ وما لك تربة فأقول تسقى
لأنك نصب هطل الهاطلات
٢١ ــ عليك تحية الرحمن تترى
برحمات غواد رائحات(١)

٤ ــ من العصر الحاضر :

لحافظ ابراهيم عن لسان حال اللغة العربية :
١ ــ رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
وناديت قومي فاحتسبت حياتي
٢ ــ رموني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عداتي
٣ ــ ولدت ولما لم أجد لعرائسي
رجالا وأكفاء وأدت بناتي
٤ ــ وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
٥ ــ فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
٦ ــ أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
٧ ــ فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني
ومنكم وإن عز الدواء أساتي

---
(١) السابق ص : ٥٠ .

٨ ـ فلا تكلونى للزمان فاننى
أخاف عليكم أن تحين وفاتى

٩ ـ أرى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز أقوام بعز لغات

١٠ ـ أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات

١١ ـ أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوأدى فى ربيع حياتى

١٢ ـ ولو تزجرون الطير يوما علمتم
بما تحته من عثرة وشتات

١٣ ـ سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما
يعز عليها أن تلين قناتى

١٤ ـ حفظن ودادى فى البلى وحفظته
لهن بقلب دائم الحسرات

١٥ ـ وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق
حياء بتلك الأعظم النخرات

١٦ ـ أرى كل يوم بالجرائد مزلقا
من القبر يدنينى بغير أناة

١٧ ـ وأسمع للكتاب فى مصر ضجة
فأعلم أن الصائحين نعاتى

١٨ ـ أيهجرنى قومى عفا الله عنهم
الى لغة لم تتصل برواة

١٩ـ سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى
لعاب الأفاعي في مسيل فـــرات

٢٠ـ فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
مشكلة الألوان مختلفـــات

٢١ـ الى معشر الكتاب والجمع حافل
بسطت رجائي بعد بسط شكاتي

٢٢ـ فاما حياة تبعث الموت في البلى
وتنبت في تلك الرموس رفاتي

٢٣ـ واما ممات لا قيامة بعده
ممات لعمري لم يقس بممات(1)

* * *

(١) السابق ص: ٥ .

ثانيا : نص من كتاب: فقه اللغة وسر العربيـــــة

لأبي منصور الثعالبي

الباب العشــــرون

في الأصوات وحكاياتهـــا

١ — فصل في ترتيب الأصوات الخفية وتفصيلهـــا

عن الأئمـــة

من الأصوات الخفية : الرِّز . ثم الركز، وقد نطق بـــــه القرآن. ثم الهَيْنَمَة، فوقهما ، وهي صوت السِّرار. ثم الهَيْنَمَة وهي شبه قراءة غير بينة، وينشد للكميـت :

ولا أشهد الهُجْر والقائلـــــه

اذ هم بهَيْنَمَـــةٍ هَتْمَلـــوا

ثم الدندنة ، وهي أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمتــــه ولا تفهمه ، لأنه يخفيه .

وفي الحديث: " فأما دندنتك ودندنة معاذ فلا أحسنها" ثم النغم ، وهو: جرس الكلام ، وحسن الصوت. ثم النَّبْـــأة ، وهي الصوت ليس بالشديد ، ثم النَّأمَـة ، من النئيم ، وهـــو الصوت الضعيف .

٢ ـ فصل في : أصوات الحركات

الهمس : صوت حركة الانسان ، وقد نطق به القرآن.. ومثله الجرس والخَشْفَة ، وفى الحديث: انه صلى الله عليه وسلم قال لبلال : انى لا أرانى أدخل الجنة فأسمع الخشفة الا رأيتك، وقريب منها : النَّمْشَة ، والوقْدَة .

فأما النَّامَّة : فهى ما ينم على الانسان من حركته ، أو وطء قدميه . الهَسْهَسَةُ : عام فى كل شئ له صوت خفى كهساهس الابل فى سيرها . الهَمِيس : صوت نقل أخفاف الابل فى سيرها ، وينشد :

* وهن يمشين بنا هَمِيسا *

٣ ـ فصل فى تفصيل الأصوات الشديدة

عن الأئمة

الصياح : صوت كل شئ اذا اشتد . الصراخ : والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزعة أو المصيبة . وقريب منها : الزعقة ، والصَّلْقَة . الصخب : الصوت الشديد عند الخصومة والمناظرة ، العَجّ : رفع الصوت بالتلبية ، وكذلك الاهلال . التهليل : رفع الصوت بلا اله الا الله ، محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . الاستهلال : صياح المولود عند الولادة ، الزَّجَل : رفع الصوت عند الطرب . النقع : الصراخ المرتفع . الهَيْعَة :

الصوت عند الفزع. وفي الحديث: خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار اليها. الواعية: الصراخ على الميت. النعير: صياح الغالب بالمغلوب. النعيق: صوت الراعي بالغنم. الهديد: والهَدَّة: صوت شديد تسمعه من سقوط ركـــــن أو حائط، أو ناحية جبل. الفديد: صوت الفَدَّاد، وهـــــو الاكّار بالثور أو الحمار. وفي الحديث: "ان الجفاء والقسوة في الفدّادين".

الصديد من الأصوات: الشديد، كالضجيج. وفي القرآن: (اذا قومك منه يصدون): أي: يضجون.

الجَرَاهية: صوت الناس في كلامهم وعلانيتهم دون سرهم. وكذلك الهَيْضَلَة، عن أبي زيد.

٤ ــ فصل في الأصوات التي لا تفهم

عن الأئمة

اللغَط: أصوات مبهمة لا تفهم. التغمغم: الصوت بالكلام الذي لا يُبَيَّن. وكذلك التَّجَمْجُم. اللَّجَب: صوت العسكر. الوغى: صوت الجيش في الحرب.

الضوضاء: اجتمـــاع أصـــوات الناس والدواب وكذلك الجلبـــــة.

٥ ـ فصل فى الأصوات بالدعاء والنداء

الهباب: الصوت بالدعاء . التَّهْييت : الصوت بالانسان أن تقول له : هيت ، هيت ، وينشد قول الراجز:

قد رابنى أن الكَرِىَّ أسكتا

لو كان معنيا بها لَهَيَّتا

الجَخْجَخَة : الصياح بالنداء ، وفى الحديث: "اذا أردت العز فَجَخْجِخْ فى جُشَم".

الجأجأة : الصوت بالابل لدعائها الى الشراب وكذلك الاهابة. الهأهأة : الدعاء بها الى العلف. الابْسَاس : الدعاء بها الى الحلب . السَّأْسَأَة : دعاء الحمار. الإشلاء : دعاء الكلب . الدجدجة : دعاء الدجاجة .

٦ ـ فصل فى حكايات أصوات الناس فى أقوالهم وأحوالهم

عن الأئمة

القهقهة : حكاية قول الضاحك: قه قه . الصهصهة: حكاية قول الرجل للقوم: صه صه ، وهى كلمة زجر للسكوت . الدَّعْدَعَة : حكاية قول الرجل للعاثر : دع دع ، أى انتعش . البخبخة :حكاية قول المستجيد : بَخْ بَخْ . التأخيخ : حكاية قول المستطيب : أَخْ أَخْ . الزهزهة : حكاية قول المرتضى زَهْ زَهْ . النحنحة والتنحنح : حكاية قول المستأذن : نَحْ ، نَحْ ،

عند الاستئذان وغيره . المَطْمَطَة : حكاية صوت العُجّان اذا قالوا عند الغلبة : عِيط عِيط . التَّمَطُّق : حكاية صوت المتذوق اذا صوت باللسان والغار الأعلى . الطَّمْطَمَةُ : حكاية صوت اللاطع اذا ألصق لسانه بالحنك ، ثم لطع من شئ طيب أكله .

الوَحْوَحَة : حكاية صوت به بحح . البَزْهَزَةُ والبَوْبَرَة : حكاية أصوات الهند عند الحرب . الكَهْكَهَةُ : حكاية تنفس المقرور في يديه . الهَجْهَجَة : حكاية زجر السبع والابل . الهَرْهَرَة : حكاية زجر الغنم . البَسْبَسَة : حكاية زجر الهرة . الوَلْوَلَة : حكاية قول المرأة : واويلاه . النبنبة : حكاية صوت الهادى عند البضاع .

٧ — فصل يقاربه في حكاية أقوال متداولة
على الألسنة

عن الفراء وغيره

البسملة : حكاية قول : باسم الله . السبحلة : حكاية قول سبحان الله . الهيللة : حكاية قول : لا اله الا الله . الحوقلة حكاية قول : لا حول ولا قوة الا بالله . الحمدلة : حكاية قول : الحمد لله . الحيعلة : حكاية قول المؤذن : حى على الصلاة ، حى على الفلاح . الطَّلْبَقَة : حكاية قول : أطال الله بقاءك . الدَّمْعَزَة : حكاية قول : أدام الله عزك . الجَعْفَلَة : حكاية قول : جعلت فداءك .

٨ ــ فصل فى حكاية أصوات المكروبين والمكدودين والمرضى

عن الأئمة

الأَحيح والأُحَاح : صوت يخرجه توجع أو غم . النَّحيط : صوت القصار اذا ضرب الثوب بالحجر ، ليكون أروح له . الهَنْهَمَة : صوت يخرجه تردد الزفير فى الصدر من الهم والحزن . الزحير : اخراج النفس بأنين عند عمل أو شدة . وكذلك التزحر والطَّحير . النَّهيم : كمثل النحيم : شبه أنين يخرجه العامل المكدود ، فيستريح اليه . قال الراجز :

مالك لا تَنْحِم يا رواحة
ان النحيم للسُّقاة راحه

٩ ــ فصل فى ترتيب هذه الأصوات

اذا أخرج المكروب أو المريض صوتا رقيقا ، فهو : الرنين . فاذا أخفاه : فهو الهَنين . فاذا أظهره فخرج خافيا : فهو : الخنين . فان زاد فيه فهو : الأنين . فاذا زاد فى رفعه فهو : الحنين . فاذا أزفر به وقبح الأنين فهو : الزفير . فاذا مد النفس ثم رمى به فهو : الشهيق . فاذا تردد نفسه فى الصدر عند خروج الروح ، فهو : الحشرجة .

١٠ — فصل في ترتيب أصوات النائم

الغطيط : صوت النائم ، وأرفع منه : النخيخ ، وأزيد منه : الغطيط ، وأشد منه : الجَخيف ، وفي حديث ابن عمر — رضي الله عنهما — : أنه نام حتى سمع جَخيفُه ، ثم صلى ولم يتوضأ .

١١ — فصل في تفصيل الأصوات من الأعضاء

عن الأئمة

الشَّخير : من الفم ، النَّخير : من المنخرين ، النَّخيف : منها عند الامتخاط ، القَعْقَعَة : من الحنكين عند اضطرابهما واصطكاك الأسنان ، التَّفقيع والفرقعة : من الأصابع عند غمز المفاصل ، الكرير : من الصدر ، ويقال : هو صوت المجهود والمختنق ، الزمجرة : من الجوف ، القرقرة : من الأمعاء .

١٢ — فصل في تفصيل أصوات الإبل وترتيبها

عن الأئمة

إذا أخرجت الناقة صوتا من حلقها ولم تفتح به فاها ، قيل : أرزمت ، وذلك على ولدها حين ترأمه ، والحنين : أشد من الرزمة ، فإذا قطعت صوتها ولم تمدده ، قيل : بغمت وتزغمت ، فإذا ضجت قيل : رغت ، فإذا طربت في أثر ولدها ، قيل : حنت ، فإذا مدت حنينها ، قيل : سجرت ، فإذا مدت الحنين على جهة

واحدة قيل : سجعت . فاذا بلغ الذكر من الابل الهديــر ، قيل : كَشَّ . فاذا زاد عليه ،قيل : كشكش ، وقشقش، فـاذا ارتفع قليلا قيل : كَـبَّ ، وقَبْقَبَ . فاذا أفصح بالهديــر ، قيل : هدر ، فاذا صفا صوته ، قيل : قرقر ، فاذا جعل يهـدر : كأنه يَقْصره قيل : زَغَد ، فاذا جعل كأنه يقلع قيل : قَلَخ .

١٣ ـ فصل فى تفصيل أصوات الخيل

الصهيل : صوت الفرس فى أكثر أحواله . الضَّبح : صـوت نَفَسِه اذا عدا ، وقد نطق به القرآن . القَبْع : صوت يـردده من منخره الى حلقه ، اذا نفر من شئ أو كرهه . الحمحمـــة : صوت اذا طلب العلف ، أو رأى صاحبه فاستأنس اليـــه . الخَضِيعة والوَقِيب : صوت بطنه ، وكذلك البَقْبَقَة والقبقبـــة . الوُعاق والوَعِيق : صوت يسمع من قُنْبِه ، كما يسمع الوَعيق من ثفـر الرَّمَكة .

١٤ ـ فصل فى أصوات البغل والحمار

الشحيج : للبغل . النهيق : للحمار . السحيل : أشـد منه . الزفير : أول صوته . والشهيق : آخره .

١٥ ــ فصل فى أصوات ذات الظلف

الخُوار : للبقر ، الثُّغاء : للغنم ، الثُّؤاج : للضـــأن . اليُعار : للمعز . النَّبيب : للتَّيس . الهبيب : صوته اذا أراد السفــاد .

١٦ ــ فصل فى تفصيل أصوات السباع والوحوش

الصَّئى : للفيل ، والنَّئيم : فوقه . الزئير : للأسد ، والنهيب دونـــه . العواء والوعوعة : للذئب . التضور : والتلَمُّظ : صوته عند جوعه . النباح : للكلب . والضغاء له : اذا جاع . والوقوقة : اذا خاف . والهرير : اذا أنكر شيئا أو كرهه . الضبـــاح : للثعلب . القباع : للخنزير . المواء : للهرة ، قال اللحيانـــى : ماءت تموء ، مثل : ماعت تموع . والخَرْخَرَة : صوتها فى نعاسها ، ويقال : بل هى للنمر . الضحك : للقرد . النزيب : للظـــبى . وكذلك البغوم ، قال الليث : بغُوم الظبى : أرخم صوته . الضغيب للأرنب . ويقال : بل هو تضوره عند الأخذ . قال ابن شميـــل : قبقاع الدب : حكاية صوته فى ضحكه .

١٧ ــ فصل فى أصوات الطيـــور

الزمار : للظليم . الزمار : للنعامة ، الصرصرة : للبـــازى . القَمْقَمَة : للصقر . الصفير : للنسر . الهديل والهديــــر : للحمام . السجع : للقُمْرى . العندلة : للعندليب . اللقلقــة : للّقْلق . البطبطة : للبط . الهدهدة : للهدهد . القطقطة :

للقطا ، وينشد للنابغة :

يا حسنها حين تدعوها فَتَنْتَسِـب

أى : تصيح : قطا قطا .

الصُقاع والزُّقاء : للديك . النَّقْنَقة والقَوْقَأة : للدجاجة .

والقيْق : صوتها اذا دعت الديك للسفاد . عن ابن الأعرابى .

الإنقاض : صوتها اذا أرادت البيض . التَرْقيب : للمُكَّـاء .

السَّقْسَقة : للعصفـور . النَّعيق والنَّعيب : للغراب . قـال

بعضهم : نعيقه بالخير ، ونعيبه بالشر .

١٨ — فصل فى أصوات الحشرات

فحيح الحية : بفيها . وكَشيشها : بجلدها . وحفيفهـا :

من تحرش بعضها ببعض ، اذا انسابت . النَّقيق : للضفدع .

الصَّئى : للعقرب ، والفأرة . الصرير : للجراد . قـــال

أبو سعيد الضرير : تقول العرب : سمعت للجراد خَتْرشة ، وخترشة

وهى أصوات أكله .

١٩ — فصل فى أصوات الماء وما يناسبه

الخرير : صوت الماء الجارى . القَسيب : صوته تحت وَرق

أو قُماش . الفَقيق : صوته اذا دخل فى مضيق . البقبقة : حكاية

صوت الجرة والكوز فى الماء . القرقرة : حكاية صوت الآنيـــة

اذا استخرج منها الشراب . الشَّخْب : صوت اللبن عند الحلـب

عن أبى عمرو . الشَّخيخ : صوت البول . عن الليث . النَّشيـش :

صوت غليان الشراب .

٢٠ — فصل فى أصوات النار وما يجاورها من الأشياء

الحَمْس : من أصوات النار ، وقد نطق به القرآن ، الكَلْحَبة : صوت توقدها ، المَعْمَعَة : صوت لهيبها اذا شُبَّ بالضرام ، الأزيز : صوت المرجل عند الغليان ، وفى الحديث: أنه كان عليه الصلاة والسلام يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل ، الغَطْغَطَة والغَطْمَطَة : صوت غليان القدر ، وكذلك الغَرْغَرَة ، النَّشْنَشَة : صوت المقلى ،

سمعت أبا بكر الخوارزمى يقول : سئل بعض المُجَّان عن أحب الأصوات اليه ؟ فقال : نشنشة المَقْلِيّ ، وقرقرة القنينة ، وقشقشة السلّة ،

٢١ — فصل فى سياقة أصوات مختلفة

هزيز الريح ، هزيم الرعد ، عزيف الجن ، حفيف الشجر ، جعجعة الرحا ، وسواس الحلى ، صرير الباب والقلم ، قلقلة القفل والمفتاح ، خفق النعل ، صريف ناب البعير ، مُكَاء النافخ فى يده ، وقد نطق به القرآن ، دَرْدَاب الطبل ، طنطنة الأوتار ، صفيل الحجام ، وهو صوته اذا امتص المحاجم وكذلك النقيض ، هَيْقَمَة السيوف ، وهى حكاية أصواتها اذا ضرب بها ،

٢٢ ـ فصل فى الأصوات المشتركة

النشيش : صوت غليان القدر والشراب • الرنين : صوت الثكلى والقوس • القصيف : صوت الرعد والبحر وهدير الفحل • النقيق : صوت الدجاج والضفدع • الجرجرة : حكاية صوت الفحل ، وحكاية صوت جرع الماء • القعقعة : صوت السلاح والجلد اليابس ، والقرطاس • الغرغرة : صوت غليان القدر وتردد النفس فى صدر المحتضر • المجيج : صوت الرعد والحجيج والنساء والشاء • الزفير : صوت النار والحمار والمكروب اذا امتلأ صدره غما فزفر به • الخَشْخشة والشخشخة : صوت حركة القرطاس والثوب الجديد والدرع • الصَّهْصَلِق : الصوت الشديد للمرأة والرعد والفرس • الجلجلة : صوت السبع والرعد وحركة الجلاجل • الحفيف : صوت حركة الأغصان ، وجناح الطائر ، وحركة الحية • الصليل والصلصلة : صوت الحديد واللجام والسيف والدراهم والمسامير • الطنين : صوت الذباب والبعوض والطنبور • الأطيط : صوت الناقة والجمل والرجل اذا أثقله ما عليه • الصرير : صوت القلم والسرير والطست والباب والنعل • الصرصرة : صوت البازى والبط والأخطب ، الدوى : صوت النحل والأذن والمطر والرعد • الانقاض : صوت الدجاجة والفروج ، والرحل والمحجمة اذا شدها الحجام بمصه التغريد : صوت المغنى والحادى والطائر ، وكل صائت طرب الصوت ، فهو غرد • الزمزمة والزهزهة : صوت الرعد ولهب النار ، وحكاية صوت المجوسى ، اذا تكلف الكلام وهو مطبق فمه • الصَّئِى : صوت الفيل والخنزير والفأرة واليربوع والعقرب •

٢٣ ـ فصل فيما يليق بهذا الباب من الحكايات
عن ثعلب عن سلمة عن الفراء

قال : سمعت العرب تقول : غاقِ غاقِ : لصوت الغراب ، وطاق طاق : لصوت الضرب ، والطقطقة : حكاية ذلك ، عن الليث ، عن الخليل ، تقول العرب في حكاية صوت حوافر الخيل على الأرض حَيَطَقْطَقْ ، وأنشد :

جرت الخيل فقالت ∴ حبطقطق حبطقطق

قال ابن الأعرابي : ومثلها : الدقدقة ، قال : وشِيْبْ شِيْبْ ، حكاية جرع الابل الماء ، وقد نطقت به أشعار العرب ، قال : وغِق غِق ، حكاية غليان القدر ، وفي الحديث : ان الشمس لتقرب يوم القيامة من الناس ، حتى ان بطونهم لتقول : غِق غِق ،

قال : والدَّبْدَبة ، حكاية صوت الدبادب ، كأنه : دَبْ دَبْ ،

* * *

أهم المصادر والمراجـــع

١ ـ أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني ـ طبعة رشيد رضا .

٢ ـ الأصوات اللغوية . د / ابراهيم أنيس ـ مكتبة الأنجلـــو المصريـــة .

٣ ـ أصول النقد الأدبي ـ أحمد الشايـــب .

٤ ـ الاعجاز البلاغي في تراث أهل العلم ، د / محمد أبو موسى مكتبة وهبة بالقاهـــرة .

٥ ـ الاعجاز الفني للقرآن ـ عمر السلاموني ـ مؤسسة عبد الكريم عبد الله ـ تونس .

٦ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ الرافعي .

٧ ـ بدائع الفوائد لابن القيم ـ دار الفكر ـ بيروت .

٨ ـ البرهان في علوم القران للزركشي ـ المكتبة العصريـــة صيدا ـ بـــيروت .

٩ ـ تاريخ اداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعي ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة .

١٠ ـ التجديد الموسيقي في الشعر العربي ، د / رجاء عيـــد منشأة المعارف بالاسكندريـــة .

١١ ـ التجويد والأصوات د / ابراهيم محمد نجا ـ دار الطباعة المحمديـــة .

١٢ ـ التحرير العربي ، د / أحمد شوقي رضوان ، ود / عثمـــان الغريج ـ مطابع جامعة الملك سعود بالرياض .

١٣ — تفسير أبى السعود — دار احياء التراث العربى .
١٤ — التفسير الكبير للفخر الرازى — دار الكتب العلمية بيروت .
١٥ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — العقاد — الهيئة المصرية العامة للكتاب .
١٦ — حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى — دار صادر — بيروت .
١٧ — الخصائص لابن جنى . تحقيق / محمد على النجار .
١٨ — خصائص التراكيب — د / محمد أبو موسى — مكتبة وهبة بالقاهرة .
١٩ — دراسات فى النص الشعرى — د . عبده بدوى — دار الرفاعى — الرياض .
٢٠ — دراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية — دكتور / عبد الجواد محمد محمد طبق — دار الأرقم بالزقازيق .
٢١ — دلائل الاعجاز — عبد القاهر الجرجانى — شرح وتعليق / محمد عبد المنعم خفاجى .
٢٢ — روح المعانى للآلوسى — مكتبة التراث .
٢٣ — سر الفصاحة — ابن سنان — تعليق / عبد المتعال الصعيدى — مكتبة صبيح .
٢٤ — علم الفصاحة العربية د / محمد على رزق الخفاجى — دار المعارف .
٢٥ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده — ابن رشيق — مطبعة القاهرة ١٩٢٥م .

٢٦ ـ فقه اللغة وسر العربية ـ مكتبة ومطبعة الحلبى .
٢٧ ـ فى علم النفس الأدبى ، د / حامد عبدالقادر .
٢٨ ـ قراءة فى الأدب القديم ، د / محمد أبو موســـى ـ دار الفكر العربى .
٢٩ ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ـ ابن الأثـير ـ تحقيق د / أحمد الحوفى ود /بدوى طبانة .
٣٠ ـ مجموعة من النثر والنظم للحفظ والتسميع ـ نظـــارة المعارف ـ مطبعة بولاق .
٣١ ـ مختار الشعر الجاهلى ـ مصطفى السقا ـ مكتبة ومطبعة عيسى الحلـبى .
٣٢ ـ المختار من التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيـح للزبيدى ـ شرح وتعليق محمود النواوى و محمـد عبدالمنعم خفاجى .
٣٣ ـ مدخل الى البلاغة العربية ـ د / عبدالجواد محمد محمد طبق ـ دار الأرقم ـ الزقازيــق .
٣٤ ـ مدخل الى اللغة ، د / محمد حسن عبدالعـزيـز ـ دار الوفاء للطباعـــة .
٣٥ ـ المصبـاح المنـير ـ للفيومــى .
٣٦ ـ من أســرار التعبير القرانى فى سورة الأحــزاب ، د / محمد أبو موسى ـ دار الفكر العربى .
٣٧ ـ من أسرار اللغــة د / ابراهيم أنيس ـ مكتبة الأنجلو المصريـــــة .

٣٨ — مقدمة ابن خلدون .
٣٩ — الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون ، د / محمد عيد ، عالم الكتب .
٤٠ — من القيم الاسلامية في الأدب العربي ، د / صابر عبد الدايم — مؤسسة العصر الحديث .
٤١ — موسيقى الشعر ، د / ابراهيم أنيس .
٤٢ — موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ، دكتور / صابر عبد الدايم — مكتبة الخانجي .
٤٣ — نشأة اللغة ، د / علي عبد الواحد وافي — مكتبة دار العروبة .
٤٤ — الوساطة بين المتنبي وخصومه — القاضي الجرجاني مطبعة عيسى الحلبي وشركاه .

* * *

محتويات الكتاب

* * *